٢٤١

HARLEQUIN

روايات احلام

البحيرة السوداء

شارلوت لامب

www.elromancia.com
مسرمـــورية

البحيرة السوداء

شارلوت لامب

- كنت اللعبة التي تسليت بها، أليس كذلك؟ لقد تجاهلت كل احتجاجاتي، واستغليتني بإحدى ألاعيبك الصبيانية. ولكن يمكن لشخصين أن يشتركا في اللعبة... والآن، حان دورك لتكون لعبتي!

دنزل بلاك مصاص دماء عاشق يتنقّل من امرأة هدّها اليأس إلى أخرى أسيرة الحزن... وهو الآن يتربص بأخت كلير، أم تراه يسعى إلى كلير نفسها؟ ولكن كلير صمّمت هذه المرة على أن الأوان قد حان ليدرك هذا الرجل شعور من يقع ضحيةً للحب.

لبنان ٢٥٠٠ ل.ل.
سوريا: ٧٥ ل.س.
الأردن: ١,٥٠ دينار
الكويت: ٧٥٠ فلس
الإمارات: ١٠ دراهم
قطر: ١٠ ريال

البحرين: ...
...
تونس: ١ دينار
عمان: ١ ريال

قطاع الثقافة
٦/٠٠

ISBN 9953-15-075-3

روايات أحلام

مجلة قصصية أسبوعية

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية

محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بترخيص خطي من *Harlequin Enterprises II B.V*

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال

تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة *Harlequin Enterprises II B.V.*

كل العلامات التجارية استعملت

بترخيص من شركة *Harlequin Enterprises II B.V.*

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:

Vampire Lover

First published in Great Britain 1994

Harlequin Mills & Boon Limited

© Charlotte Lamb 1994

Translation © Dar El-Farasha - 2002

ISBN 9953 - 15 - 074 - 5

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -

ص.ب: ٨٢٥٤/ ١١ هاتف/ فاكس: ٤٥٠٩٥٠-١-٩٦١- بيروت - لبنان

Email: dfarasha@cyberia.net.lb

أعزائي القراء

حدث خطأ مطبعي في الصفحة الثانية من الاعداد رقم ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣ كان من نتيجته استبدال الاسماء الإنكليزية للقصص المذكورة ولمؤلفيها بالأسماء غير المناسبة. لهذا نعتذر من قرائنا لهذا ونورد فيما يلي الأسماء الصحيحة:

١ ـ القصة رقم ٢٣١ ـ بقايا ليل.

عنوان القصة الانكليزية: Wife for a day

اسم المؤلفة: Kate Walker

تاريخ الصدور: 1998

ISBN 9953-15-056-7

٢ ـ القصة رقم ٢٣٢ ـ سيدة اللعبة.

عنوان القصة الانكليزية: To catch a playboy

اسم المؤلفة: Elizabeth Duke

تاريخ الصدور: 1995

ISBN 9953-15-057-5

٣ ـ القصة رقم ٢٣٣ ـ المطلوب امرأة.

عنوان القصة الانكليزية: Ultimate temptation

اسم المؤلفة: Sara craven

تاريخ الصدور: 1997

ISBN 9953-15-058-3

شارلوت لامب

ولدت شارلوت لامب في لندن، قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية. أمضت معظم أيام الحرب تتنقل من منزل قريب إلى آخر، هرباً من القصف. تلقت تعليمها في أحد الأديرة وبعد انتهاء دراستها عملت في مصرف (بنك انكلترا). تزوجت من صحفي ورزقت منه بخمسة أولاد. تعيش مع عائلتها في منطقة (أيل أوف مان).

لشارلوت لامب رصيد من الروايات يفوق المئة، معظمها من إصدارات شركة (ميلز أند بونز).

١ ـ غريبٌ في البحيرة السوداء

التقت كلير دنزل بلاك في اليوم الأول الذي وصل فيه إلى البلدة. كان الفصل خريفاً، والأوراق على الأشجار قد اتخذت لوناً بنياً تارةً، وقرمزياً أو خمرياً تارةً أخرى، فيما السماء انصبغت بلونٍ أرجوانيٍ عميقٍ مائلٍ إلى الزرقة، والجو أنذر بعاصفةٍ توشك أن تهب من الغرب.

كانت الرياح تؤرجح نافذة الوكالة، فتصدر جلبةً عظيمة، بينما الأنوار لا تومض إلا لتخبو مجدّداً. تجهّم وجه كلير، وغمر القلق عينيها الزرقاوين، وراحت ترجو ألا ينقطع التيار الكهربائي فجأةً كعادته في مثل هذا الجو العاصف. على أيّ حال، من الأفضل أن تعود إلى منزلها، لا سيّما وأنّ موعد الإقفال قد حان. نهضت عن مكتبها، وشرعت ترتدي معطفها، وهي تبعد خصلات شعرها الشقراء عن رقبتها.

وفجأة، انفتح باب المحل، تاركاً للريح حرية أن تتوغل في المكتب، ففكّرت كلير للحظة قبل أن تقول معتذرة بتهذيب: «أنا آسفة. ولكن الوكالة أقفلت أبوابها منذ برهة. ألا تستطيع العودة غداً؟».

ولمّا كانت قد أطفأت الأنوار الرئيسية، لم تستطع أن تتبيّن جيداً الرجل الواقف في المدخل. لكن، وفي الظلام الخفيف الذي سيطر على المكان، لاحظت أنه طويل القامة، أسود الشعر، ويرتدي معطفاً طويلاً قاتماً، تتلاعب الريح بأطرافه. وسمعته يقول بصوتٍ عميق:

ـ قرأت لوحة الإعلانات خارج المنزل الذي يقع في أعلى «هانترهيل»..

www.elromancia.com

أعني ذلك البيت الواسع القيكتوري الطراز الذي يتفرع عن الطريق. فهل ما زال معروضاً للبيع؟

تمتمت كلير ببطء، وهي تحاول أن تتبين ملامحه في الظلال: «البحيرة السوداء».

لكنها لم ترَ إلا وميض عينيه اللتين واظبتا على التحديق فيها.

وسرعان ما أجابت، وهي تخنق قشعريرةً غريبةً سرت في جسمها: «نعم، ما زال للبيع».

ولم تجد سبباً لهذا البرد الذي اجتاحها إلا الريح. وعادت وركّزت تفكيرها على المنزل القديم الواقع عند طرف البلدة. لقد مضى زمنٌ طويلٌ على عرضه للبيع ولم يلقَ مشترياً بعد، ولعل ذلك يعود إلى ضخامته التي لا تناسب أيّ عائلةٍ عادية. يمكن أن يحوّله أحد المهتمّين إلى فندق صغير أو مستوصف، ولكن حالته من السوء ما يستوجب إصلاحاتٍ مهمةً، قبل أن يصبح جاهزاً للسكن. وها قد مرّت سنتان، وما زال اسم البيت مدوناً في سجلات الوكالة. ولا شك أن والدها سيسرّ أشدّ السرور حين يعلم أنها استطاعت أخيراً أن تبيعه، أو حتى أن تؤجره.

وما لبث الغريب أن سألها: «أتستطيعين أن تأخذيني في جولةٍ في المكان؟».

ـ نعم، بالطبع، ما رأيك في صباح الغد؟ فلنقل في الساعة الحادية عشرة..

ثم أخرجت من درج مكتبها مذكرةً وقلماً بلامبالاةٍ، أخفت بها حماسها الشديد لإنجاز هذه الصفقة. ولم يكن ذلك بعسيرٍ على شقراء باردةٍ مثلها، لا سيّما وأن عينيها تسبحان في بحر أزرق شاحب شديد الفتور.

لكن الرجل المتشح بالسواد أجابها: «سأكون مشغولاً طيلة نهار الغد. فما رأيك أن نذهب الآن؟».

وإذا بناقوس الخطر يقرع في عقل كلير، فما كان منها إلاّ أن ردّت بأدبٍ

يفتقر إلى الودّ: «أنا آسفة، هذا ليس ممكناً».

فلطالما ردّد والدها على مسامعها أن مرافقة رجلٍ غريب إلى منزلٍ فارغٍ خطوةٌ محفوفةٌ بالمخاطر. ولهذا حرص دائماً على إرسال شخصٍ معها في هذه المناسبات. ومنذ تقاعد، صار أخوها روبن يرافقها.

وروبن تلميذ في التاسعة عشرة من عمره، يتابع دروساً في إدارة الأعمال في المعهد التقني المحلي. لكنه ضخم الجثة، قويّ العضلات، فهو يمارس رياضة الركبي في المعهد، ولطالما شعرت معه كلير بالأمان.

ـ ماذا تعنين أنه ليس ممكناً؟

كان سؤاله مقتضباً على نحوٍ فظ، جمّد أوصالها، ولكنها ردّت: «يبدأ العمل هنا من التاسعة، وحتى الخامسة والنصف، يا سيّد..».

فقال بذلك الصوت العميق والغامض: «بلاك.. دنزل بلاك.. هل المدير موجودٌ؟».

ـ أنا المديرة.

ولمّا شعرت بأنه لا يصدقها، أضافت: «وهذه وكالتي».

ـ لكن اللوحة على الباب تقول إن جورج سامر يدير هذه الوكالة.

ـ هو والدي، لكنه تقاعد الآن، تاركاً لي إدارة الوكالة!

ـ فهمت.

وأحسّت به يحدّق فيها، فيما عيناه تتألقان في هذا الظلام الباهت.

ـ حسناً يا آنسة سامر.. أم أنك متزوجة؟

ترددت لبرهة، وشعرت أنها لا تريد أن تفصح له عن اسمها، بطريقةٍ تقارب العناد، غير مألوفة لديها ولا منطقية. لكن شيئاً ما فيه بدأ يزعجها، ورغبت فجأةً بالتخلص منه بأسرع ما يمكن. فأجابت باختصار: «أنا كلير سامر».

ـ إذاً، لست متزوجة؟

فهتفت بنبرةٍ تكاد تكون حادةً: «لا! إسمع، أنا آسفة يا سيد بلاك.

ولكن لا وقت لديّ حقاً لأريك البيت الليلة».

فبادل حدتها بحدّةٍ أشد: «آنسة سامر، إما أنك تريدين بيع «البحيرة السوداء» وإمّا لا. ففي الغد، سأسافر إلى الخارج لأشهرٍ عدة، ولهذا لا أستطيع أن أرى المنزل إلاّ الليلة. فاختاري، إمّا أن تصحبيني إليه حالاً، وإمّا انسي المسألة برمتها».

تردّدت وهي تعض على شفتها السفلى. لا شك أن أباها وأخاها غير موجودين في المنزل الآن، فقد ذهبا لمشاهدة مباراةٍ في الركبي في البلدة المجاورة، ولن يعودا قبل ساعتين. صحيحٌ أن بإمكانها أن تطلب من لوسي أن تلاقيها في «البحيرة السوداء»، فلا بدّ أنها عادت من عملها في هذا الوقت، فهي تعلّم في المدرسة الابتدائية المحلية، وتعود إلى المنزل عند الخامسة مساءً.

وما لبث دنزل بلاك أن أعلن وقد عيل صبره: «هيّا قرّري، فمحاميتي، هيلين شيرارد، تنتظر في السيارة. وأظن أنك تعرفينها. لقد أردتها أن ترى المنزل أيضاً، لكن لا أنوي أن أجعلها تنتظرني مدة أطول».

وهنا، أطلقت كلير تنهيدةً خفيفةً عبّرت فيها عن ارتياحها: «هيلين! نعم، أعرفها طبعاً. حسناً سيد بلاك، سأصحبك إلى «البحيرة السوداء» الآن، لكن لديّ موعداً آخر عند السابعة، ولا أستطيع أن أتأخّر. لذا، سنقوم بجولةٍ سريعة».

ثم التفتت إلى خزانة الملفات، وراحت أناملها تبحث عن ملف «البحيرة السوداء». وما إن وجدته، حتّى أخرجت مجموعةً من المفاتيح من صندوقٍ مقفلٍ مثبت في الجدار، وأقفلت الخزانة والصندوق مجدداً. وقبل أن تغادر المكان، اختلست النظر إلى المرآة التي تزين الحائط، فيما زرّرت معطفها الشتائي الأحمر القاتم الذي امتد إلى منتصف ساقيها.

في ذلك الوقت، كان دنزل يراقبها، فقال بتشدق: «معطفك يكاد يكون فكتوريّ الطراز.. وهو يناسبك».

ولمّا سمعت هذا المديح التهكمي، رمقته بنظرةٍ جافة قائلة: «شكراً».

إذاً، يظن هذا الغريب أنها قديمة الطراز، ولا شك أنه رمى إلى إهانتها، لكنه لم يصب هدفه. فكلير لا تمانع في هذا الوصف البتة، لا سيّما إن صدر عن رجلٍ مثله. ولا مجال لإنكار أنه جذابٌ فعلاً، فقد شعرت كلير بقوةٍ مغنطيسية جذبتها إليه ما إن دخل هذا المكان. لكنها تعلّمت منذ زمنٍ طويل ألا تثق بالرجال، لا سيما بأولئك الذين يفيضون بالجاذبية. فضربٌ من الجنون أن تتعلق المرأة برجالٍ دللتهم الحياة حتى أفسدتهم، إذ أنّ الأمر أشبه بأن تسير بإرادتها في طريقٍ نهايته الجراح. لذا، على المرأة المتعقلة أن تترك البعد يفصل بينها وبينهم، وأن تعاملهم بمنتهى البرودة والجفاء. وكلير أصبحت خبيرةً في ذلك الآن.

وحين تأكدت من أن أدراج مكتبها مقفلةٌ، التقطت حقيبتها ومظلتها، ثم تقدمت نحو دنزل بلاك. كان الظل ما زال يحجب وجهه، ولكنها تبينت يده، وهي تمتد إلى الباب الأمامي لتفتحه لها.

ـ عليّ أن أضبط جهاز الإنذار، ثم أقفل الأبواب.

ـ سأنتظركِ عند السيارة.

نظرت كلير إلى السيارة السوداء الأنيقة. صحيحٌ أنها ليست مهووسة بالسيارات، ولا تستطيع أن تتكهن طرازها، لكن المرء لا يحتاج إلى خبير ليعرف أنها فاخرةٌ وباهظة الثمن. وإن استطاع دنزل بلاك أن يقتني مثل هذه السيارة، فلا بدّ أنه قادرٌ على شراء «البحيرة السوداء». وهذا وحده يبدّد أحد الشكوك التي ساورتها عنه.

وحين انتهت من مهمتها، اتجهت نحوه لترافقه. في حين لم يوقف سيل نظراته، فراح يتأملها بدءاً بشعرها الأشقر الناعم القصير، مروراً بساقيها الطويلتين الرشيقتين، وانتهاءً بقدميها الرائعتين. كانت كلير ترتدي ملابس بسيطة، كلاسيكية لا تبطل موضتها. وقد اعتادت أن تختار ثيابها لا طلباً لإعجاب الرجال بل للإحساس بالراحة والهدوء، وهما شعوران فارقاها

تحت وطأة نظراته المليئة بالسخرية والتسلية.

فمجرد خضوعها لتفحّص عيني دنزل بلاك، لا سيما وهي تدس رجليها الطويلتين في السيارة، كفيلٌ بأن يوقظ الرعشة في جسدها. وعرفت أن هذا الرجل يشكل مصدراً حقيقياً للمشاكل.

ولمّا أصبحت في الداخل، التفتت هيلين من المقعد الأمامي، وابتسمت ابتسامةً مهذبة ثم حيّتها: «مرحباً كلير».

ودّت كلير لو تغتنم الفرصة، فتطرح عليها بعض الأسئلة عن زبونها. لكن دنزل بلاك سرعان ما دار حول السيارة، ثم صعد إليها قبل أن تنبس كلير ببنت شفة.

فاكتفت بابتسامةٍ ودية، وقالت: «مرحباً هيلين، كيف حالك؟».

ـ جيدة.

ورغم ذلك، لم تستطع كلير إلا أن تلاحظ شحوب وجهها، فبشرتها التي لطالما كانت قشدية اللون ومتوردة، تفتقر الليلة إلى اللون. أما عيناها الخضراوان اللتان تتألقان حيوية، فواهنتان ناعستان، وكأنها مغرمة.

وسرعان ما أشاحت كلير بوجهها وقد أجفلتها بنات أفكارها. ترى، هل هيلين مرتبطة بعلاقةٍ مع زبونها؟

فمنذ طلاقها من بول، وهو صاحب فندقٍ محليّ مشهور، وهي تتنقل من علاقةٍ إلى أخرى. وما إن استقلت بنفسها، حتى اصطفّ الرجال لإرضائها. ويكفي في هذه البلدة الصغيرة المنعزلة أن تواعد المرأة أكثر من رجلٍ في سنةٍ واحدة لتغدو محور حديث السكان. فكيف إذاً بهيلين التي شوهدت برفقة عدد من الرجال، منذ انفصالها عن بول؟ لكن أيّاً من علاقاتها لم يعمّر طويلاً أو يبنَ على أسسٍ متينة، ولعل ذلك يعود إلى شعورها بالأمان في تسلسل الأشخاص، أو لعلها اكتسبت ببساطةٍ مزيجاً من النهور والجموح بعد طلاقها. وتقول الشائعات إنها تشاجرت مع زوجها، بعد علاقةٍ غرامية عابرة أقامها مع نزيلةٍ في الفندق، علاقة لم تستطع أن تغفرها له قط.

انطلقت السيارة ببطءٍ أولاً، ثم ازدادت سرعتها مع ابتعادها عن الرصيف. وبدا واضحاً أن دنزل بلاك يدرك وجهته جيداً، لذا لم تضطر كلير إلى إرشاده إلى الطريق. وما كان منها إلا أن أسندت رأسها إلى الوراء، وراحت تراقب يديه وهما تمسكان بالمقود. ولشدة ما كانت تتأملهما، لاحظت شعيرات سوداء خفيفة تغطيهما، وفاجأها مزيج من الرشاقة والقوة فيهما. وبعد أن فرغت من مراقبة أنامله الطويلة، انتقلت إلى رسغه، وقد زينته ساعة ذهبية لمّاعة، ثم عادت مجدداً إلى إصبعه، حيث وقع نظرها على خاتم ذهبي ثمين، نقش عليه شعار النبالة.

أما وجهه، فما زال خفياً عنها. لكنها كانت تلمح شعره الأسود الكثيف واللماع، كلّما مروا بمصباح في الشارع. وبدا معطفه من الكشمير الداكن، أنيقاً وغالي الثمن أيضاً. نعمْ، لا شك أنه يملك الكثير من المال.

في ذلك الوقت، كانت هيلين تهمس في أذنه بكلماتٍ لم تسمع كلير معظمها. لكنها سألته بصوتٍ أجشّ، ونبرةٍ تحمل قدراً من الغضب: «وكم تنوي أن تبقى في الولايات المتحدة؟».

هزّ كتفيه بلا مبالاةٍ وأجاب: «شهراً، وربما اثنين».

فردت بصوتٍ يخالطه الأسف: «كل هذه المدة؟».

وهنا، قطبت كلير، وهي تشعر بالحزن لأجلها. وراحت تتذكر الأيام التي تملكتها فيها مثل هذه المشاعر بسبب رجل. لكنها تجربةٌ تنوي ألا تكررها أبداً، ففيها من الألم ما لا تود أن تعتاد عليه مطلقاً.

وبعد برهة، توقّف دنزل بلاك قليلاً بسبب زحمة السيارات، واستغلّ الموقف ليلتفت إلى كلير في الخلف ويقول: «إذا قرّرت أن أشتري هذه الملكية، فستمثلني هيلين أثناء سفري».

فردت كلير: «حسناً.. هل تعيش في غرينهاوي في الوقت الحالي يا سيد بلاك؟».

ـ كلاّ، بل أعيش خارج البلدة، مع أخ هيلين وزوجته في منزلهما

الجميل.

وتمتمت هيلين بصوتٍ أبح: «وهكذا التقينا».

لم تكن كلير تعرف هيلين جيّداً. فغالباً ما جمعتهما الأعمال وصفقات الزبائن، بدل اللقاءات والزيارات الاجتماعية. كما أن هيلين تشكّل جزءاً من ذلك المجتمع الراقي الذي لم تكن كلير تنتمي إليه. فعدا عن المال، امتلكت أسرتها أراضٍ مهمة، وورث جيمي ستور بيتاً ريفياً يعود إلى أيام الملكة آن، تحيط به أرضٌ خصبة، تبلغ مساحتها بضع مئات من الأكرات، وتقع خارج بلدة غرينهاوي. وفيما رعى هو شؤون المزرعة، قامت زوجته بإدارة فندقٍ يعتبر بمثابة مقرٍ ريفيّ لأصحاب الأملاك والأموال. وهو يضمّ مطعماً صغيراً اكتسب شهرةً في أنحاء الإقليم لأسلوبه المتميز في الطهو، فلورا ستور طاهية ممتازة، تستخدم دائماً المكونات الطازجة، من المزرعة مباشرة. وعمل الاثنان بجدّ، لكنهما جازفا كثيراً أيضاً، حتى أضحت حياتهما الاجتماعية غنية، وأصبحا محطّ أنظار السكان والوافدين.

وبالمقابل، لم تكن عائلة كلير تنتمي إلى البيئة نفسها. لكن ذلك لم يضايقها البتة، فلا الحفلات الصاخبة تسليها، ولا النوادي الفخمة تدخل البهجة إلى قلبها. أما الفرق الرياضية وحفلات العشاء، فلا تمت إليها بصلة، بل كانت تستمتع بالسير والسباحة، وارتياد دور السينما والمسارح، كما تحتل القراءة جزءاً مهماً من حياتها. وهي تقضي الوقت برفقة عائلتها وعددٍ يسير من أصدقائها المقربين. وهكذا، تراها تختلف عن هيلين شيرارد اختلافاً كبيراً، لم يُحل، رغم ذلك، دون تقديرها لتلك المرأة، وإعجابها بأخيها وزوجته.

ومؤخراً، كان الأسف يساورها على حال هيلين، فبعد طلاقها، بات فيها من الكآبة ما عجزت عن إخفائه. وليت الغباء لا يبلغ بها حدّ الوقوع في حبّ رجلٍ بالكاد تعرفه! وحانت من كلير التفاتة إلى المرآة فوق رأس هذا الرجل، وإذا بها تقع على البريق في عينيّ دنزل بلاك الرماديتين. بدت لها

حدقتاه واسعتين، وكأنهما من الكهرمان الأسود الذي منح العينين لونه. أما جفناه، فثقيلان، يحملان رموشاً كثيفة.

وحين أمعنت كلير النظر في المقلتين الغريبتين، تحاول أن تسبر أغوارهما، انسدل الجفنان فجأة، ليخفيا التعبير فيهما. ثم أشاح بوجهه، لتتلاشى صورته بغتةً من المرآة.

أجفلت كلير، وهي تتمنى لو سنحت لها فرصة تأمل ملامحه. فمهما حاولت، ظل الفضول يتملكها. ترى، ما حقيقة مشاعره تجاه هيلين؟ أيصطحبها إلى «البحيرة السوداء» بصفتها محامية، أو بحكم علاقةٍ شخصية أكثر؟ أيأمل أن يكون هذا البيت العش الذي سيجمعهما مستقبلاً؟ لكن أنّى لها من إجاباتٍ على هذه الأسئلة؟

عندئذ، كانوا قد غادروا البلدة، ليبلغوا الريف الأخضر، الذي يشرف على هانتر هيل، القريبة من غرينهاوي. فطالعهم، من جهة، البحر الرمادي العاصف، وقد تكسرت أمواجه عند المنحدر الصخري، فيما الأفق يكاد يختفي تحت نور الشفق وقد مال إلى السواد. أما من الجهة الأخرى، فمراعٍ واسعة، تسرح فيها الخراف، ومستنقعاتٌ داكنة وتلالٌ مرتفعة، بدت من بعيد وكأنها حيوانات رابضة، تتمطى في الأفق. وأصبح بإمكان المرء أن يرى «البحيرة السوداء»، فكيفما حوّل نظره، لن يقع إلا على أبراجٍ وشرفاتٍ تعانق السماء، في حصنٍ من الطراز الفيكتوري القوطي، أشبه بقصور القرون الوسطى.

تمتمت هيلين: «يا إلهي! إنه مخيف».

فضحك دنزل بلاك وأجاب: «ألا تحبينه؟».

وقطبت كلير، وقد أحست أن ردّ هيلين قلّما يهمه. ومع أن ذلك لا يعنيها، إلا أن الفضول حول علاقتهما ظل يزداد تدريجياً.

وانتهى بهم المطاف بعد لحظاتٍ أمام بوابةٍ حديدية مصنوعةٍ بإتقان. فترجلت كلير من السيارة، وتوجهت نحوها وهي تنتقي مفتاحاً من

المجموعة التي في جيبها. ولمّا كان الصدأ قد اجتاح القفل، تطلب منها الأمر جهداً ملحوظاً، مما دفع دنزل بلاك إلى الترجّل بدوره، والتقدم للمساعدة.

- دعيني أقوم بذلك.

وفيما كانت يده تمتد إلى المفاتيح، لامست أناملها، فأحست وكأن تياراً كهربائياً يسري فيها، وما كان منها إلا أن أجفلت وتراجعت قليلاً إلى الخلف. رماها بنظرةٍ جانبيةٍ مبطنة حتى شعرت بالاحمرار يتصاعد إلى وجنتيها، واستبد بها الغضب. لمَ تصرفت على هذا النحو بحق السماء؟ لا شك أنه سيظنها واحدةً من المراهقات اللواتي تتورد خدودهن ما إن يقترب منهن رجلٌ ما!

وبعد ثوانٍ، دار المفتاح في القفل، مصدراً صريراً مزعجاً، فتقدم ودفع البوابة إلى الأمام.

- يحتاج هذا القفل إلى الزيت.

- نعم، سأحرص على أن يتم ذلك في الغد.

وبمزيجٍ من الارتباك والانزعاج، استردت المفاتيح، ثم عادت أدراجها إلى السيارة، فيما سار دنزل بلاك خلفها. وكانت الريح تزمجر وتتلاعب بأشجار بساتين «البحيرة السوداء»، فاختلست النظر إليه، لترى معطفه الأسود الطويل يتطاير حول رجليه، وكأنه بات يملك جناحين، ويستعد للإقلاع، والاختفاء خلف جناح الليل.

بعدئذٍ انطلقت السيارة ببطءٍ على طول الطريق الوعرة المتعرجة، التي تخللتها الحفر، واجتاحتها النباتات والأعشاب. وبين حينٍ وآخر، كانت أرانب بريةٌ لم يظهر منها إلا أذنابها البيضاء القصيرة تعترض سبيلهم.

كان من الصعب عليهم أن يتبينوا البستان فعلاً، لكن كلير تعلم أن نباتات الوردية والغار تنتشر أكواماً على ناحيتي الطريق. وفجأةً، لاح لهم طيف المنزل الفارغ، بنوافذه المغلقة، وكأن الحياة فيه معدومة. ولاحظت كلير شبحاً أسود يرفرف حول البرج العالي، سرعان ما عرفت أنه خفاش.

ولمّا كانت تعلم أن سرباً من الخفافيش يعيش على السطح، تساءلت إن كان دنزل بلاك سيبدل رأيه بسببها. فبعض الناس يكره الخفافيش، لا بل يرتاع منها، لسببٍ لم تستطع أن تتفهمه يوماً، فهي مخلوقاتٌ صغيرةٌ جداً، لا تهتم إلا بالتهام الحشرات، ولا تشكّل أيّ خطر على الإنسان. ومع أن كلير تود لو تحتفظ بالبعض منها في كوخها، إلا أنها قررت عدم ذكر أمرها لدنزل بلاك.

وهنا، سألها: «أليس من ناظرٍ يتولى الإشراف على المنزل؟».

فهزت كلير رأسها نفياً، وأردفت: «لم يرد المالك أن يدفع ليوظف أحداً. فقد انتقل للعيش في أوستراليا، ولا نية له بالعودة إلى هذا المكان. وكل ما يرغب فيه هو بيع المنزل. صحيح أنه ما زال مفروشاً، لكن، إن كنت مهتماً فعلاً بشرائه، يمكن التخلص من المفروشات في المزاد العلني، فيصبح المكان فارغاً.

فرد بغموضٍ وهو يحدق في السماء: «سنرى».

ونظرت هيلين إلى السماء بدورها، وسرعان ما أطلقت صرخةً عالية: «آه.. ما هذا؟».

فأجاب دنزل بلاك بنعومة: «إنه خفاش.. وهو من النوع البني الصغير الذي يدخل البهجة إلى القلب.. كما أنه بالكاد يفوق حجمه فراشةً كبيرة. ترى، أيعقل أن أقع على سربٍ على السطح؟ لا شك أن المساحة واسعة تحت العارضة الخشبية، وهذا، بالضبط، مسكنها المفضّل».

بدا لكلير أنه يعرف الكثير عن الخفافيش، وهذا يعدّ في صالحه. ولم تتمالك نفسها، فابتسمت، ورأت لبرهة بريق عينيه القاتمتين ينعكس في المرآة.

- أتحبين الخفافيش يا آنسة سامر؟

- بل أعشقها، وأود أن أقتني البعض منها في منزلي.

- أتملكين منزلاً خاصاً؟

فأقرّت: «أقوم بتجديد كوخٍ ريفيّ قديم، لا يبعد عن هنا كثيراً.

www.elromancia.com

وأعمل على إصلاحه في كل عطلة نهاية الأسبوع. أما في باقي الأيام، فأعيش مع عائلتي في البلدة».

عندها، علّقت هيلين وقد أبدت بعض الحماس للمرة الأولى: «أنا مهتمة بالتصميم الداخلي، فهل تصممين الديكور بنفسك يا كلير؟».

فأجابت كلير بجفاء: «في الوقت الحالي، أقوم بإصلاح السطح، ثم عليّ أن أكسو السقف والجدران بالجص. أما الديكور، فما زال الوقت مبكّراً عليه».

بدت هيلين مرتاعة وهي تقول: «تتكلمين وكأن المنزل في حالةِ دمار شامل».

فضحكت كلير وأجابت: «إنه كذلك فعلاً».

ـ ولماذا اشتريته بحق السماء؟

فردّت كلير فيما السيارة تتوقف أمام المنزل: «عدا عن أن الثمن بخس، اعتبرت ذلك بمثابة تحدٍّ لقدراتي».

أجابت هيلين وتعابير السخرية ترتسم على وجهها: «أنت أشجع مني إذن!».

في ذلك الوقت، شعرت كلير بدنزل بلاك يتفرس فيها بعمق في مرآة السيارة، لكنها لم تحاول أن تلتقي بنظرته المحدقة، بل انتقت مفتاح الباب الأمامي الكبير، وخرجت من السيارة، ثم صعدت الدرجات حتى الباب. وفي هذه المرة، دار المفتاح في القفل بسهولةٍ أكبر، فانفتح الباب محدثاً صريراً طويلاً. وراحت كلير تتلمس المكان بحثاً عن زر الكهرباء على جدران الرواق المكسوة بالألواح الخشبية. وإذا بالنور ينبعث فجأة من ثريا تتدلى فوق رؤوسهم، فيما امتدت أمامهم قنطرةٌ عُلّق عليها خليط مدهش من الصور الزيتية والمخطوطات، والصور المطبوعة والصور الفوتوغرافية الموضوعة في أطرٍ فضية. فضلاً عن الأسلحة والدروع المعدنية ورؤوس الحيوانات التي علّقت على ألواحٍ خشبية.

ولمّا كانت الريح تعبث في الرواق، سمعوا صوت باب يصفق فجأة في مكان ما في الأعلى، وارتجّت نوافذ المدخل الزجاجية الملطخة جميعها.

فصرخت هيلين بصوتٍ أشبه بالنحيب: «هذا رهيب!».

ثم لفّت معطفها حولها حتى لم يبدُ منها إلا وجهها الشاحب، وأردفت: «لا يمكن أن تكون جاداً في نيّتك شراء هذا المكان يا دنزل، إنه أشبه بمقبرةٍ وليس بمنزل».

كان على كلير أن تقرّ أن الجو باردٌ فعلاً، لسببٍ لا يعود إلى خلو البيت أو حلول فصل الخريف، بل خيّل إليها أن برودة قديمة تغلغلت في أحجار المنزل وقرميده، وأن الدفء لن يحلّ فيه أبداً، ولو أشعل المرء موقداً في كل غرفةٍ. ردّ دنزل وهو يفتح الباب الأوّل الذي يتفرع عن الرواق:

ـ ستتكفل التدفئة المركزية بنشر الدفء فيه، ولن يكون تركيبها بالمهمة الصعبة.

في هذه اللحظات بالذات، استطاعت كلير أن ترى وجهه للمرة الأولى. بدا صارماً، بفمه الواسع الجذاب، وأنفه القويّ، وعينيه الشاحبتين اللتين لا يفارقهما البريق، وشعره الأسود المتدلي حتى الصدغ. باختصار، كان كل من ملامحه يناقض الآخر ممّا يجعل وجهه موضوعاً تصعب دراسته أو تحديده.

وفجأةً، تمتم وهو يتأمل حجرة الاستقبال الرئيسية: «أحب الغرف الكبيرة».

فوافقت كلير: «وهذه الغرفة كبيرة فعلاً».

لكن هيلين تأوهت: «كبيرة؟ بل إنها ضخمة».

امتدت النوافذ من السقف إلى الأرض وعلى جانبي الغرفة، وقد وضعت بقربها مقاعد وثيرة. تتميّز غرف المنزل كلها بسقوفٍ عالية، وقد تدلت من سقف هذه الحجرة ثريا أخرى أضفت على المكان بريق الحفلات. وفي الغرفة أيضاً، موقدٌ خشبي أشبه بمقدمة السفينة، مكسو بالآجر من الطراز الڤيكتوري، تزيّن خلفيته الذهبية صورٌ تذكّر بالقرون الوسطى.

كان الأثاث قديماً وبالياً بشكلٍ عام. فالكراسي القيكتورية قد خسرت معظم حشوتها، والستائر بدت رثةً جداً، فيما البسط ممزقةٌ بالية. لكن، أينما نقّل المرء بصره، وقع على صور وزخرفات متنوعة، حفلت بها جدران هذه الغرفة تماماً كالرواق، بل كان فيها من الصور ما يدفع العقل إلى الدوران، فيجول البصر ويجول، حتى يعجز عن رؤية المزيد.

وهنا، قال دنزل بلاك: «رائع!».

لكن هيلين اشتكت: «المجموعة تناسب شاحنة النفايات!».

فسأل دنزل بلاك: «أقلتِ إن المجموعة بأكملها ستعرض للبيع؟ إن اشتريت المنزل، أود أن أختار بعضاً منها».

ـ أنا واثقة من أنني أستطيع تدبر ذلك.

في الواقع، كانت كلير لتسعد لو تمكّنت من بيع جزء من المقتنيات فقط. إنّ بعض التحف قيمّ، لكن الأثاث بمجمله في حالةٍ رديئة، وقد يباع في المزاد لقاء سعرٍ زهيد لا غير. ومع أن والدها اعتاد أنّ ينظم هذه المزادات، إلا أنها كانت تمثّله في المبيعات، فمثل هذه الإجراءات يستغرق ساعاتٍ، مما يرهق أبيها، ويضطرها إلى المناوبة عنه حتى نهاية المزاد. ومن هنا، تعلمت تقدير بعض التحف بمجرّد النظر إليها، وأصبحت تعرف كم من المال سيدر بيع أثاثٍ مثل أثاث «البحيرة السوداء».

وعادت هيلين إلى الشكوى وهي تلحق به إلى الغرفة الأخرى، فيما تطايرت حوله أوراقٌ مصفرةٌ تسللت من الباب الأمامي المشرّع: «آه، دنزل، لا يمكن أن تكون جاداً فعلاً!».

وقبل أن تلحق كلير بهما، توجهت نحو الباب لتغلقه. ولمّا عادت، وجدتهما في رواق الخدم المعتم، وهي غرفةٌ طويلةٌ ضيقة بشبابيك صغيرة، وطلاءٍ بنيّ قاتم. وقد بدا واضحاً أن الجدران كانت في ما مضى ناصعة البياض، وقد علّقت عليها سلسلةٌ من الأجراس، دوّن فوق كلٍّ منها اسم الغرفة المناسبة. كما تدلت من السقف مجموعةٌ من العلاقات القديمة التي

تثبت اللحوم والأعشاب، إضافة إلى بكرةٍ مكسورةٍ للغسيل فوق طاولةٍ كبيرة يجلس إليها الخدم. وبعد أن أجالت هيلين نظرها في المكان، قالت بنفورٍ واضح: «كم هو باعثٌ للكآبة!».

فردّ دنزل، وهو يمرّر إصبعه على الرفوف المغطاة بالغبار: «كل ما يحتاجه هذا المكان هو طلاء ناصع البياض، وورق جدرانٍ جميل! يبدو لي أن هذه الخزانة من عمر البيت».

فأقرّت كلير: «هذا صحيح. وكما تلاحظ، بعض هذه الأواني الخزفية الصينية نفيس فعلاً، ويعود معظمها إلى الحقبة القيكتورية، وأظن أنها ستباع بسعرٍ جيدٍ في المزاد».

ـ قد أرغب في الاحتفاظ بها كلها.

فتأوهت هيلين وقالت: «يا إلهي! ستبدو وكأنك تعيش في متحف!».

على الرف الأعلى من الخزانة، وقعت عيناه على إناءٍ فيه أزهارٌ ذبلت منذ زمن، فبدت مغبرّة يابسة، يلفّها نسج عنكبوتٍ، ارتاح عليه جسم عنكبوتٍ مخطط مخيف.

حدّقت هيلين فيه، وقد أصيبت برعبٍ عظيم، ثم لفت معطفها حول نفسها ورمقت دنزل بلاك بنظرةٍ مؤنبة وقالت: «وكأن المكان مسكون. فلا أنفك أتخيّل قيام المالكين من الموت، ولا أستطيع تحمل ذلك بعد الآن. لذا، سأعود إلى السيارة، فأسرع قبل أن أتجمد من البرد».

وهرولت مسرعة فيما كعباها يحدثان جلبةً على أرضية الرواق. وبعدئذٍ، ارتفع صرير الباب، ثم صفق مرجّعاً صدىً مدوياً.

تمتمت كلير: «أخشى أنها لا تحب المنزل».

فرد دنزل بلاك متشدقاً، فيما لمعت عيناه: «ولكنها لن تسكن فيه».

ألن تفعل؟ ها قد ذهبت نظريتها الأولى أدراج الرياح. فمن الواضح، أنه لم يحضر هيلين إلى هنا، لترى عشهما المستقبلي. لكن، هل تعرف هي ذلك؟ لا يبدو ذلك، فهيلين تتصرف مع دنزل وكأنها تمتلكه، مما دفع كلير

إلى الجزم أن علاقتهما تتعدى الإطار المهني.

ورفعت نظرها إلى دنزل بلاك، فلمحت تسليةً ساخرة لاذعة في عينيه البراقتين. لا شك أنه كان يراقبها ويقرأ أفكارها، وهذه الفكرة وحدها جعلت الاحمرار الطفيف يدب في بشرتها.

وما لبث أن قال: «أردت منها أن تسدي إليّ نصيحةً تتعلق بقيمة الملكية».

فأجابته كلير على الفور:

ـ إنها صفقةٌ رابحة، لا سيما إذا أخذنا حجمه والأراضي الواسعة التي يشملها بعين الاعتبار.

وما أن سكتت حتى رمقها بنظرة قاسية، وقال: «من الطبيعي أن تقولي هذا، أليس كذلك؟ لهذا، أملت أن تعطي هيلين رأياً محايداً. والآن، هلاّ صعدنا إلى الطابق الأعلى، وألقينا نظرة على بقية المكان؟».

ولمّا صعدا، خيّل إليها أن المكان بات أكبر حجماً وأكثر فراغاً. وكانت كل خطوةٍ يخطوانها ترجّع أصداءً، فيما ألواح الأرضية تصر تحت وقع خطواتهما. ومما زاد الطين بلة، أن الجو أصبح شديد البرودة.

ودّت كلير لو تلحق بهيلين إلى الخارج، لكنها ذكّرت نفسها بنسبة الأرباح التي ستنالها الشركة بعد بيع البيت. لهذا، ظلت تتبع دنزل بلاك من غرفةٍ إلى أخرى، وهي تجبر نفسها على التفوه بأي تعليقات ذكية قد تثير حماسه. لكنها في الحقيقة، كانت تفكّر في جنونه الذي يدفعه إلى التفكير بشراء هذا المنزل. ونظرت إلى سريرٍ عالٍ، ستائره حمراء داكنة وبالية، قبل أن تتحول إلى مصباح بالقرب منه، عكست نوره مرآةٌ من الطراز القوطي، ذات إطار من السنديان. لا شكّ أن هذه المرآة ستباع سريعاً في المزاد العلني، فحجمها يناسب البيوت الحديثة، وهي تلائم تماماً النزعة الحالية للفنّ الحديث.

واستغرقت في تأملها، فتبع دنزل بلاك نظراتها، وقال مباشرة: «إنها

ساحرة، وسأحتفظ بها بالتأكيد».

فسألته بوضوح وقد تأكدت من ذوقه الرفيع: «ماذا تعمل يا سيد بلاك؟ أعني ما مهنتك؟».

ـ في الوقت الحالي لا مهنة لي.

ثم هزّ الستارة، وراح يراقب كيف يتطاير الغبار منها، وأضاف: «لكن لا تقلقي، سأدفع لك ثمن المنزل نقداً، هذا إن اشتريته.. فلن يشكّل المال مشكلة».

لكنها لم تكن تفكّر في ذلك، فتابعت أسئلتها ونار فضولها لم تطفىء بعد:

ـ وأين تعيش في الوقت الحاضر؟ أعني، عدا عن أنك تقيم في فندق جيمي ستور؟

رمقها بنظرةٍ فيها مزيج من السخرية والجفاء، ثم قال: «في لوس أنجلوس».

فاتسعت عيناها إشارةً إلى أنها لم تكن تتوقع ذلك: «حقاً؟ لكنك لست أمريكياً، أليس كذلك؟».

لقد لاحظت لكنته الغريبة، لكنها متأكدة من أنها ليست أمريكية.

ـ كلا، لقد ولدت في اسكوتلاندا، مع أنني لا أذكر عنها شيئاً. إذ تركتها ما إن بلغت الثانية من عمري، وعشت في مانشستر حتى صار عمري إحدى وعشرين سنة. لكن، في السنوات الأخيرة من أيام المراهقة، أمضيت سلسلةً من العطلات الممتعة في غرينهاوي.

ـ ولهذا عدتَ؟

وتراقصت نظرات التسلية في عينيه وهو يجيب: «أهذا ما تريدين معرفته؟ لماذا عدتُ إلى غرينهاوي؟ في الواقع، إجابةً على سؤالك، لقد عشت في كاليفورنيا لسنواتٍ، لا سيما في لوس أنجلوس وبيڤرلي هيلز».

حدقت فيه وهي عاجزة عن كبت السؤال: «بيڤرلي هيلز؟ أنت لا تعمل

www.elromancia.com

في مجال الأفلام، أليس كذلك؟».

ثم ضحكت وهي تتوقع منه أن يهزّ رأسه نفياً.

لكنه أجاب بهدوء: «بلى».

فبدت كلير غير مصدقة وهي تسأله: «وماذا تفعل؟ لست ممثلاً طبعاً؟».

لكنه قد يكون ممثلاً فعلاً، فشكله وجاذبيته مناسبان، وبإمكانها أن تتخيّله في هذا المجال.

ـ لقد مثّلت قليلاً، منذ سنين مضت، لكنني لعبت أدواراً ثانوية، إلا أنني أردت أن أكون وراء الكاميرا والكواليس، فعملت في وظائف عدة في هذا الميدان، وأصبحت مصوراً فوتوغرافياً ومصوراً سينمائياً، ومصمم مسارح. أما طموحي، فكان الإخراج، وحققت حلمي أخيراً، لكنني في الوقت الحالي بلا عملٍ.. فعدت إلى بريطانيا لأنني أردت أن أبتعد عن السينما قليلاً.

ـ هل اخترت غرينهاوي لأن فيها ذكريات لم تعرفها في اسكوتلاندا؟

فأومأ وأجاب: «كانت لي ذكرياتٌ جميلة في غرينهاوي، كأيام الصيف على شاطىء البحر، والنزهات قرب المستنقعات. وقد سلمني وكيل سفرٍ كتيّب عن فندق جيمي ستور، ولهذا أنا هنا».

وأزال الغبار عن يديه بمنديلٍ وهو يكشر قائلاً: «البيت كله قذرٌ جداً».

ثم أسند ظهره إلى الجدار، وعيناه القاتمتان الثاقبتا النظر هادئتان: «حسناً، لننتقل إلى حديث الأعمال، آنسة سامر. أنا متأكد أنك تدركين أن السعر باهظ مقارنة مع حالة المنزل.. فعليّ أن أنفق ثروةً لأقوم بالإصلاحات، قبل أن أنتقل إليه. لكنني سأعطيك السعر الذي أنا مستعدٌ لدفعه، ويمكنك أن تكلمي المالك، وتعلميني النتيجة عبر هيلين. لكنني لن أساوم، بل سأقدّم عرضاً واحداً لا غير. فإن رفضه، لن أكلف نفسي عناء

مناقشة المسألة مجدداً».

راحت كلير تراقبه بهدوء، ثم أومأت أخيراً، فعرض سعراً أقل بكثير مما تأمل. عندئذ، تحجّرت عيناها الزرقاوان، وقالت بفتور: «حسناً، سأبلغ زبوني بعرضك. لكنني أشك في أنه سيوافق على هذا الثمن البخس».

ـ أخبريني، منذ متى والمنزل معروض للبيع؟ منذ سنواتٍ عدة، أليس كذلك؟ إن المنازل الفارغة تنهار بسرعة، لا سيّما هذا.. وبعد سنتين، سينهار السقف، فيما يكسّر الأولاد النوافذ، ويغدو البستان بريّاً تماماً. ولن يطول الأمر حتى تمسي الملكية أطلالاً ليس إلاّ.

ومع أنه محق، رفضت كلير أن تقرّ بذلك، وتمتمت بصوتٍ باردٍ وبعيد: «سأكلم زبوني».

واستدارت، ونزلت السلالم لتخرج من المنزل، ودنزل بلاك يلحق بها.

في الخارج، كانت العاصفة تزداد عنفاً، والريح تعوي كما الذئب حول المنزل. وفجأةً، دوّى الرعد، وتبعه برق قوي شقّ السماء، وراحت أنوار الثريا تومض، حتى انطفأت أخيراً، ليغرق المكان في ظلام دامس. في ذلك الوقت، كانت كلير قد وصلت إلى منتصف السلم المحفورٍ بإتقان، فتوقفت بغتةً وهي عاجزةٌ عن الاهتداء إلى طريقها في هذه العتمة المفاجئة.

كان دنزل بلاك قد أصبح خلفها تماماً. ولمّا وضع يده على كتفها، أحست بنفسها تطير في الهواء.

ـ ألديكِ مشعل كهربائي؟

أجابته وصوتها يكاد لا يسمع: «في السيارة».

فتنهد: «لا تقلقي، أستطيع أن أرى في الظلام، أعطني يدك».

وانزلقت أنامله من كتفها إلى ذراعها، ومنها لتمسك بيدها. وودّت كلير لو تسحبها بعيداً، فهو يملك تأثيراً غريباً عليها، لكنها لم تحبذ فكرة البقاء وحدها في العتمة. وكان عليها أن تسارع في الخروج من هنا، لذا تركته يقودها على الدرجات.

حين عادا إلى السيارة، وجدا هيلين واقفةً قربها. ولمّا رأتهما، ركضت نحوهما وتعلقت بدنزل بلاك بحالةٍ أقرب إلى الهستيريا: «لقد انطفأت الأنوار كلها، ثم ومض برقٌ رهيب... ألم ترَ ذلك؟ كانت العاصفة من القوة، بحيث خفت أن تقلب السيارة في طريقها. ثم رأيت هذا البرق وانطفأت الأنوار، فناديتُ وناديت... ألم تسمعني؟ كيف يمكنك أن تتركني وحدي في الخارج في مثل هذا الظلام، طيلة هذا الوقت؟».

فهدّأ دنزل بلاك من روعها ورأسه محنيّ فوقها: «يجب ألا تغضبي بهذا الشكل، فأنا أسمع قلبك وهو يخبّط كالطبل!».

ثم أحنى رأسه أكثر حتى ظنت كلير أنّه عانقها. فأشاحت بنظرها سريعاً، وقد علا وجهها الاحمرار. ليتذكّرا على الأقل أنها موجودة! وهي، بالطبع، لا ترغب في أن تكون شاهدةً على غرامهما!

أطلقت هيلين تنهيدةً طويلة توحي بإرهاقها، ثم أحاطته بذراعيها وهمست: «آه، دنزل..».

فهدّأها قائلاً: «صه.. أنت بأمانٍ الآن، سنوصل الآنسة سامر إلى منزلها، ثم آخذك إلى البيت. هيّا، عودي إلى السيارة. وستصبحين بحالٍ أفضل ما إن يغمرك الدفء».

أطاعته هيلين بضعف، ثم جلست في مقعدها من غير أن تضيف كلمةً أخرى. ولمّا عادت كلير بدورها إلى السيارة، لاحظت أن هيلين أغلقت عينيها وكأنها تكاد تغفو.

وفيما ابتعدوا عن «البحيرة السوداء» سألها دنزل بلاك: «أين تعيشين يا آنسة سامر؟».

ـ بالقرب من المكتب، في ساحة يورك. لا بد من أنك تعرفها.. إنها ساحةٌ من العصر الجورجي بنيت خلف «تاون هول».

ـ نعم أعرفها، وهي تضمّ منازل جميلةً جداً، تخضع لحمايةٍ جيدة أيضاً. وهل تعيش عائلتك هناك منذ زمن طويل؟

ـ لقد ولد والدي في هذا البيت، وعشتُ فيه أنا طيلة حياتي، إنه منزل عائليٌّ مليء بالحنان.. ونحن نحبه.

ـ ولكنك تنوين الانتقال ما إن تنهي الإصلاحات في كوخك.

فشرحت له كلير رغماً عنها، وهي تتساءل لمَ يطرح كل هذه الأسئلة:

ـ أفراد الأسرة كثيرون، وأود الحصول على مكانٍ خاص بي.

ـ ألديك العديد من الإخوة والأخوات؟

فردّت: أخوان وأخت. وفي المنزل أربع غرف نوم فقط، يشغل أبي إحداها. ويحتلّ أخواي غرفتين أيضاً، فروين تلميذ، ويحتاج إلى مكان خاصّ للدرس، ولأخي الصغير، جايمي، غرفة ضيقة. أما أنا وأختي، فنتشارك في غرفة.

ـ كم عمرها؟

فتحرّكت هيلين بامتعاض: «كفى طرحاً للأسئلة عليها يا دنزل! تبدو وكأنك مضيفٌ في أحد البرامج التلفزيونية».

فقهقه، ولكن كلير لاحظت أصابعه الطويلة تشتد على المقود، وظهر لون أبيض طفيف عند مفاصله. وشكّت في أنه لم يعجب بالطريقة التي صدته فيها هيلين.

وقاد السيارة بصمتٍ حتى بلغوا البلدة، فراح يبحث عن طريقٍ بحيد منها عن الطريق العام. ولمّا وصلوا إلى ساحة يورك، ظهرت أمامهم المنازل التي يعود معظمها إلى أوائل القرن التاسع عشر. وفي وسط الساحة، انتشرت حدائق مشذبة بعناية، تحيطها شرفاتٌ من العصر الفيكتوري مطلية حديثاً، مما يضفي على المكان طابعاً ريفياً، لا سيّما في الصيف، حيث تزدان الأشجار والجنبات بكامل أوراقها، وينتشر عبق الأزهار في الهواء.

وسألها دنزل بلاك: «أيها بيتك؟».

فتقدمت كلير لتشير إليه: «هذا هو، عند مصباح الشارع، ذاك الذي تنمو نباتات البهشية في حديقته».

www.elromancia.com

ركن السيارة عند مصباح الشارع، فشكرته كلير بأدب، ووعدته: «سأعلم هيلين بقرار زيوني في أقرب وقتٍ ممكن.. عمتِ مساءً هيلين».

فتمتمت هيلين بنعاس: «عمتِ مساءً».

وما كان من دنزل بلاك إلا أن ترجّل من سيارته، وتقدم ليفتح باب كلير.

فشكرته وهي تتجنب يده التي امتدت لتساعدها: «شكراً، عمت مساءً يا سيد بلاك».

وقبل أن تتمكن من الهروب، انفتح باب بيتها الأمامي، وكشف النور الأصفر في الرواق عن طيف فتاةٍ، ثم ظهر وجهٌ يكلله شعر أشقر فضي، تتميّز خصلاته بالطول والنعومة.

سألها وقد تبدل صوته: «من هذه؟».

فرمته كلير بنظرةٍ عابسة، ولم تجب.

وامتدّ بينهما صمتٌ طويل، قبل أن تبدأ الفتاة بالتقدّم نحوهما.

وكرّر دنزل بلاك سؤاله ببطء: «أهذه أختك؟».

فاضطرت إلى الإجابة بصوتٍ فاتر: «نعم».

في الواقع، كانت تتمنى لو أن لوسي لم تخرج في هذه اللحظة، فهي تشعر نحوها بالحماية الشديدة. كما أنها تتمتع بحدسٍ قويّ، وحدسها ينبئها الآن بأن لقاء لوسي بدنزل بلاك لن تكون عواقبه حميدة.

وقالت أخيراً آملة أن يرحل: «عمت مساءً سيد بلاك».

لكنه لم يفعل، بل لازم مكانه وهو يراقب لوسي تتقدم نحوهما ببطء، وقد ارتسم على وجهه هدفٌ معين. صرت كلير على أسنانها وهي تود أن تقرأ أفكاره.

ولما وصلت لوسي إلى دائرة الضوء عند البوابة، توقفت. ثم ارتسمت على وجهها المستدير، ابتسامة أضفت عليها الإشراق. ومع أنها لم تكن قد تبرّجت، إلا أن بشرتها بدت ناعمةً، صافيةً ورائعة.

كانت بشرتها تماثل بشرة كلير، إلا أن الفرق بينهما شاسع. ورغم أن كلير كانت تدرك أن سحرها يجذب الرجال، إلاّ أن لوسي، تعتبر، وبكل بساطة، جميلة.

وبالإضافة إلى ذلك، تتمتع لوسي بتألق غامض، يعود من جهةٍ إلى بشرتها البيضاء، وشعرها الطويل الذهبي المتطاير حول وجهها، وعينيها اللتين تفوقان عيني كلير زرقة، ومن جهةٍ أخرى إلى طبيعتها التي تماثل طبيعة الأطفال براءة.

وأحياناً، يبدو لكلير أن لوسي لم تبلغ سن النضوج بعد، ربّما لأن أسرتها أفرطت في تدليلها. ومع ذلك، لم يكن هذا يهم، لأنها مفعمة بالحب والحنان، كما أنها طيبة القلب وكريمة. ولهذا، كان القلق عليها غالباً ما يتملّك كلير، فماذا لو جرحها رجلٌ في يوم من الأيام؟ ولهذا، غمرها شعورٌ عظيم بالارتياح لمّا خُطبت إلى شابٍ عرفتْ كلير أنه لن يدخل الحزن أبداً إلى قلب أختها الصغيرة.

وما إن بلغت لوسي مرمى سمعهما حتى هتفت: «يا لها من سيارةٍ رائعة! إنّها من طراز اللمبورغيني، أليس كذلك؟».

وأردفت بعد أن منحت دنزل بلاك نظرةً ساحرة: «أهي لك؟ مرحباً، أنا لوسي، أخت كلير، نحن لم نتقابل قبلاً، صح؟».

فأجاب، وقد لمعت حدقتاه السوداوان: «صدقيني، كنت لأتذكر ذلك».

وأخذ اليد التي مدتها له لوسي، ثم انحنى ليطبع عليها قبلة، فأطلقت لهاثاً مفاجئاً قبل أن يضحكا معاً.

ـ أنت لست فرنسياً، أليس كذلك؟

فضحك مجدداً وقال: «جدتي فرنسية، أيؤخذ هذا في عين الاعتبار؟».

ـ بالطبع، لقد عرفت أنك تبدو فرنسياً.

عندها، تمتم: «سأقضي الليل بأكمله هنا، إن بدأت أصف كيف

www.elromancia.com

تبدين».

فاحمرت وجنتا لوسي، ثم قهقهت بحماس.

أما كلير، فبدت غاضبة حتى أحسّت بأسنانها تؤلمها، وما لبثت أن قالت لدنزل بلاك بضيق: «هيلين في عجلةٍ من أمرها، أتذكر؟».

رمقها بنظرةٍ جافة، ثم اختلس النظر إلى داخل السيارة. وفي ذلك الوقت، تقدمت هيلين إلى النافذة، وطرقت عليها بشدة، وسرعان ما سمعها الجميع تنادي بنزق: «دنزل!».

فلوح لها من بعيد، ثم نظر إلى لوسي مبتسماً، وبريق عينيه القاتمتين لا يفارقه.

- أخشى أنني مضطرٌ للذهاب. وسأرحل إلى الولايات المتحدة غداً، لأمضي فيها شهرين تقريباً. لكنني سأعود، وحينها سنلتقي مجدداً.

وما لبث أن عاد إلى سيارته، فأدار المحرك، ثم انطلق مخلفاً وراءه هديراً ناعماً.

وتمتمت لوسي حالمة: «أرأيت هذه السيارة.. أليست رائعة؟ وهو.. ماذا قال اسمه؟ دنزل ماذا؟ هذا اسمٌ غير مألوف. فأنا لم ألتقِ أحداً بهذا الاسم من قبل، أهو رفيقك الجديد يا كلير؟ لكنك لم تذكريه أمامي قط! كيف تخفين السر عني؟ إنه يماثل سيارته روعةً. لم تقع عيناي على رجلٍ مثله أبداً. أين التقيت به، ولماذا هو مع هيلين شيرارد؟ أخبريني كل ما تعرفينه عنه».

- هو ليس صديقي، بل مجرد زبونٍ، وأنا بالكاد أعرفه.

حاولت كلير ألا تفقد أعصابها، لكن صوتها بدا قاسياً، مما دفع لوسي إلى التحديق فيها بغرابة، فمن غير المألوف أن تظهر كلير مثل هذا الانفعال.

وسرعان ما سألتها بارتياب: «ما الأمر؟».

فأجابت كلير: «إنسي ذلك، ودعينا ندخل إلى البيت، فالجو باردٌ».

وتقدمت إلى الأمام وهي تسرع الخطى.

في الواقع، لم تعجبها قط الطريقة التي نظر بها دنزل بلاك إلى لوسي، وكأنها واحدة من ممتلكاته. ومع أنها بالكاد تعرف الرجل، إلا أنها لم تعجب به أو تثق فيه إطلاقاً. ورغم أملها في الحصول على حصتها من الأرباح، بعد إتمام الصفقة وبيع «البحيرة السوداء»، إلا أنها تمنّت أن يرفض المالك عرض دنزل بلاك. عندئذ، قد يرحل بعيداً ويعيش في مكانٍ آخر، فلا تضطر هي إلى القلق عمّا قد يحدث لأختها في لقائهما المقبل.

***

www.elromancia.com

٢ ـ لن أكون ضحيته!

لكن المالك قبل عرض دنزل بلاك في الحال. ولما سمع والد كلير هذه الأخبار، هتف: «ستتخلص أخيراً من هذه الملكية التي لا قيمة لها!».

ثم رمى ابنته بنظرةٍ لاذعة: «لا يبدو عليك السرور المفرط! أتظنين أن المشتري لن يتمكّن من الدفع؟».

فأجابت بتجهم: «كلا».

ولم تكلّف نفسها عناء الشرح، بل توجهت إلى الهاتف لتخابر هيلين شيرارد.

فردّت هيلين بصوتٍ خافت يفتقر إلى الحيوية، هذا إذا تجاهلنا فرحها بالخبر: «هذا رائع! سأشرف على إرسال العربون حالاً، ثم أباشر بالإجراءات».

ـ ألا يتضمن العرض وجود تقرير ماسح أراضٍ؟

وكان من الغريب فعلاً ألا يذكر دنزل بلاك كلمة عن ضرورة إحضار ماسح أراضٍ، ليلقي نظرةً على المنزل.

ـ كلاّ، لقد أكد دنزل أنه سيشتريه مهما كانت حالته. وعلى كل حال، سيقوم بإجراء العديد من الإصلاحات، وقد أخذ ذلك في عين الاعتبار في العرض الذي قدمه.

فتمتمت كلير: «لقد عقد صفقةً رابحةً فعلاً».

في الواقع، كانت تتمنى لو يبدي اعتراضاتٍ، عساها تقنع زبونها

بالإحجام عن البيع مع أن ذلك سيلحق بها الخسارة. إلا أنها لا تتصرف دوماً على هذه الصورة الحمقاء.

ـ إن كان يدفع نقداً، فلن يكون من الصعب إتمام الصفقة.

فردت هيلين: «أنا متأكدة من أننا لن نواجه صعوباتٍ، وسأقوم بمسح الأرض بنفسي إثباتاً لسند الملكية».

وما إن أنهت جملتها حتى تنهدت بصوتٍ مسموع، مما دفع بكلير إلى القول: «تبدين متعبة جداً يا هيلين.. أترهقين نفسك في العمل؟».

ـ ليس تماماً، لكن العمل يصيبني بالملل. ومهنتي، كما تعلمين، ليست مثيرةً إلى هذا الحدّ. كما إنني أفتقد دنزل، فمع أنه لم يسافر إلا منذ أيام قليلة، إلا أنها تبدو لي أشهراً.

وفيما كانت كلير تصغي إليها، راحت تعبث بالختم فوق المكتب بعبوس: «وإلى متى سيبقى في الخارج؟».

ـ آه، سيتغيّب شهرين على الأقل، وهو يرجو أن يعود في عيد الميلاد. لكن يبدو أنه غير متأكدٍ من ذلك.

فأجابت كلير بلا مبالاةٍ: «يا للأسف.. حسناً، دعيني أحصل على العربون، وسأترك زبوني يتصل بمحاميه أيضاً. إلى اللقاء يا هيلين، أتوقع أن أكلمك قريباً».

وبعد يومين تقريباً، التقت هيلين في «هاي ستريت»، وصعقت لشحوب وجهها: «لقد فقدت الكثير من الوزن يا هيلين، أظن أنه يجدر بك زيارة طبيب! فلا بد أنك مريضة».

فهتفت هيلين بحدة: «بالله عليك، لا داعي لكل هذا القلق، فأنت تبدين كأمي!».

قهقهت كلير وسألتها بتشدّق: «آسفة.. هل سرَّ السيد بلاك بقبول عرضه؟».

وهنا، بدت ملامح هيلين أكثر حدة: «نعم، هل رأيت صورته في

صحف الأحد؟».

فأجابت كلير: «أنا لا أطالعها أبداً. في الواقع، لا أملك القوة اللازمة لأقوم بأي عملٍ في صباح الأحد إلا النوم حتى ساعة متأخرة. أكانت صورته في الصحف حقاً؟».

ـ لقد نال جائزةً أو ما شابه، فنشرت صورة كبيرة له مع نجمة الفيلم. وهي ممثلة بارعة، مثّلت في العديد من المسرحيات في برودواي، قبل أن تدخل مضمار السينما. وهي تتميز بشعرٍ أسود ووجهٍ ساحر. أظن أن اسمها ديردر، أو شيء من هذا القبيل، وهي نصف مكسيكية ونصف إيرلندية.

فقالت كلير بعبوس: «يا له من مزيج! ومع ذلك، عرفت من تقصدين. إنها لا تدعى ديردر، بل بيلا. لقد شاهدت فيلمها الأخير عن مصاصي الدماء، وهو لا بأس به إن أردت رأيي! لكن المشاهد الإباحية كادت تحرق الشريط السينمائي الذي صوّرت عليه.

ردّت هيلين وهي تبتسم بشحوب: «نعم، هي من أقصد. وهذا فيلم دنزل الأخير».

فاتسعت عينا كلير اندهاشاً: «أنت تمزحين! هو من أخرج هذا الفيلم؟».

وسرعان ما انطبعت في ذهنها فكرة جديدة عن دنزل بلاك، فهي لم ترَ مشاهد حميمة بهذه الحرارة من قبل.

ثم قالت هيلين بصوتٍ أجش، ووجهها يكاد يقارب لون الورقة بياضاً: «ومن خلال ما أكدته الصحف هذا الأحد، فإن علاقة تربطه بتلك البيلا!».

وما إن فرغت من كلامها، حتى استدارت وابتعدت. وفجأةً توقفت، وإذا بها تترنح قبل أن تنهار أرضاً. أما كلير، فلم تستطع أن تمسكها، وقبل أن تدرك ما يحدث، مالت هيلين جانباً، وصدمت رأسها بعمود كهربائي.

وبالطبع، سرعان ما تجمع حشدٌ من الناس. فركعت كلير بجانبها بقلق، وهي تنظر إلى الوجه الشاحب والشعر الأسمر الأحمر الكثيف: «هيلين؟ هيلين، هل أنت بخير؟».

وصدح صوت من الحشد: «لقد أغمي عليها».

وأكّد صوتٌ آخر: «لقد صدمت رأسها، ورأيتها تفعل ذلك عمداً. وهي على الأرجح ثملة، كما بدا لي».

ـ اطلبوا سيارة إسعاف، فعلينا أن ننقلها إلى المستشفى.

وتقدّم بائع قائلاً: «لقد فعلت ذلك. وستصل السيارة بين لحظةٍ وأخرى».

وبدأت أهداب هيلين ترفّ، وأخذت تطلق تنهيداتٍ من بين شفتين تماثلان وجهها بياضاً، وتناهت إلى مسامع كلير الكلمة التي تفوهت بها هيلين، وكادت تجزم أنها قالت: «دنزل..».

لم تعرف كلير هل تأسف لأجلها، أم تغضب منها، أو ربما يجدر بها أن تغضب من دنزل بلاك. وما لبثت أن فكّرت، وهي تنظر إلى المرأة الأخرى بكآبةٍ، أن أي امرأةٍ تصل إلى هذه الحال بسبب رجل، تستحق صفعةً قوية.

وسرعان ما وصلت سيارة الإسعاف، وقد ارتفع صوت صفارتها. عندئذٍ، تفرق الحشد ليفسحوا المجال للمسعفين. ولما وصلوا إلى المصابة، تفحصوها وسألوا: «ماذا جرى؟».

فارتفع لغطٌ عظيم من الأصوات، وما كان من كلير إلا أن شقت طريقها عبر الناس ببرودةٍ وفعالية، وتولّت الشرح: «لقد أصيبت بإغماء، وارتطم رأسها بهذا العمود الكهربائي فيما كانت تقع».

خمدت الأصوات، وراح الجميع يحدق فيها. وبما أنها معروفة في البلدة، لم يحاول أحد أن يجادلها في هذا المكان العام. لكن تناهت إليها بعض التعليقات الهامسة التي ردّت حالة هيلين إلى الثمل.

ورافقت هيلين إلى المستشفى، ثم اتصلت بوالدتها من غرفة الانتظار:

«ستبقى في المستشفى هذه الليلة، فالأطباء يريدون إجراء بعض الفحوصات. ويحتمل أن تكون مصابة بفقر الدم، إذ يبدو أن الكريات الحمراء في دمها منخفضة، وكذلك ضغط دمها».

بدت أمّ هيلين مرتعبة، وهي امرأة حساسة وتنفعل بسهولة. وكان يخيّل لكلير أحياناً، أنها ما زالت تبكي زوجها الذي توفي منذ حوالى السنتين. ولهذا، تراها في معظم الأحيان ترتدي ملابس سوداء أو رمادية والدموع لا تفارق عينيها.

ـ آه، لا.. أتظنين.. أيظنون أنها..؟ كما تعلمين، توفي والدها متأثراً بداء السرطان..

ثم توقفت عن الكلام وقد غلبتها الدموع: «كلير، إذا أصاب هيلين مكروه.. في الواقع، أنا شديدة القلق عليها، ففي الآونة الأخيرة، كانت شديدة الشحوب، ولا حيوية فيها إطلاقاً. وهذا ما حدث لأبيها. لطالما كان الروح التي تنبض في المكان، وتبعث الحيوية فيه. على أيّ حال، أنت يا كلير تذكرين حالها قبل الطلاق! أعرف أنكما لم تكونا صديقتين مقربتين، غير أنك عرفتِ هيلين منذ سنواتٍ، وتعرفين أنها إنسانة مرحة. لكنها بدأت تذبل في الشهرين الماضيين، ولم يستطع الطبيب أن يتكهن ما بها».

ومضت في عينيّ كلير الزرقاوين شرارة جليدية. فهي تعرف تمام المعرفة ماذا حدث لهيلين مؤخراً، وتعلم أيضاً أنّ ما من طبيبٍ يمكن أن يداوي جرحها. وسرعان ما سألت جويس: «هلاّ اتصلت ببول، وأعلمته بمرضها؟».

ـ بول؟ أتظنين أنه يجدر بي إعلامه؟ فعلى أي حال، لقد تطلقا، وأعتقد أنه التقى امرأة أخرى الآن.

ـ لكنهما كانا متزوجين لفترةٍ طويلةٍ، وأنا متأكدة من أنه سيقلق بشأنها.

فتلعثمت جويس: «آه.. كلير، أنا.. كلير، هلاّ فعلتِ؟ سيكون من

الأسهل لو اتصلت به أنت. أعني.. لا أحبّ أن أتدخل.. فهيلين لن تسر بذلك، وقد تغضب مني حتى...».

فتنهدت كلير: «لكني بالكاد أعرفه يا جويس!».

ـ أرجوك، كلير، هلاّ اتصلت به؟

استسلمت كلير وقد تجهم وجهها، ثم اتصلت ببول شيرارد في فندقه، فأجابتها سكرتيرته بلهاث، وقد بدت شابة مغناج.

ـ مكتب الأستاذ شيرارد. آه، الآنسة سامر؟ هل الأمر ضروري؟ في الواقع، لا أعرف إن كان.. سأتحقق إن كان متفرغاً.

وبعد برهةٍ، ارتفع صوت بول: «صباح الخير يا كلير، كيف حالك؟».

ـ بخير بول. لكنني أتصل من المستشفى، حيث ستبقى هيلين حتى صباح الغد. وقد يكون مرضها خطيراً، فالأطباء غير متأكدين بعد.. واعتقدت أنه يجدر بي إخبارك.

فأجاب بجفاء: «ماذا تعنين بأن مرضها خطير؟ ما بالها؟».

ـ ليست لديّ أدنى فكرة يا بول. لكن حالتها تبدو رهيبة، وفكرت فقط في أن أخبرك. كانت أمّها في غاية القلق لمّا أخبرتها، كم أتمنى أن يصارحني الأطباء هنا بالحقيقة، لكنهم لن يورطوا أنفسهم بتشخيص.

ـ ألن يفعلوا؟ سنرى بشأن ذلك. سأكون عندك في غضون نصف ساعة.

وما إن أنهى كلامه حتى أغلق السماعة.

في ذلك الوقت، انتظرت كلير في المستشفى حتى وصل بول، ووالدة هيلين، في الوقت نفسه تقريباً. ومن ثم، توجهت إلى المكتب المقفل منذ الصباح.

لاحقاً، اتصلت بالمستشفى تسأل عن حال هيلين، لكنها لم تتلقّ أي مستجدات، باستثناء أن الخطر قد زال عن المريضة التي استعادت وعيها، وستلازم غرفتها لأيام عدة. فأرسلت لها كلير باقة أزهار مرفقة ببطاقةٍ

تتمنى لها فيها الشفاء العاجل. وفي عصر اليوم التالي، زارتها فوجدتها تستند إلى وسائد مكدسة، وهي ما تزال شاحبة الوجه، فاترة الهمة.

وما لبثت أن تمتمت: «يقول الأطباء إن بوسعي مغادرة المستشفى في نهاية الأسبوع. وبعد أن أجروا الفحوصات، شخصوا أنني مصابة بفقر الدم».

ثم أردفت ضاحكة: «سأضطر إلى شرب الدماء، كما دراكولا».

لكن كلير لم تضحك، فقد راعها منظر هيلين، من الظلال السوداء تحت عينيها، إلى أناملها الضعيفة وأظافرها المتكسّرة. لكن حمداً لله أن المرض لا يتعدى فقر الدم، مما سيزيل حملاً ثقيلاً عن كاهل السيدة ستور. إلا أن كلير لم تنسَ نظرة الألم في عينيّ هيلين وهي تتحدث عن دنزل بلاك وممثلته المثيرة. وعرفت أن هذا الرجل سبب المشاكل، وما لبثت أن قالت كاذبة: «تبدين بحالٍ أفضل».

فأشرقت أسارير هيلين وقالت: «أتعتقدين ذلك؟ وفقاً للأطباء، لا يجدر بي أن أعود للعمل، بل عليّ أن أرتاح لأسابيع عدة. لذلك، فكّرت في أن ألازم منزل أخي. لكن بول ينصحني بالسفر بعد الميلاد، وبما أنه مسافرٌ إلى مايوركا إلى الشقة التي نملكها هناك، فقد اقترح عليّ مرافقته».

وعلا احمرارٌ طفيفٌ وجنتيها، ثم نظرت إلى كلير بتحدٍ، قبل أن تشيح بوجهها بعيداً، وأردفت: «في الواقع، كنا متزوجين لسنواتٍ، ولن يجد أحد الأمر غريباً».

فأجابت كلير: «بالطبع لا. وأظنها فكرة رائعة».

ثم منحت هيلين ابتسامةً دافئة. وفكرت في أن بول، لو اصطحبها بعيداً، ستنسى دنزل بلاك، وقد تفكّر في الارتباط مجدداً بزوجها وإلى الأبد، وليس أثناء عطلة الميلاد فقط.

ثم قالت هيلين وقد ازداد توردها: «آه، وبالمناسبة، جوني برتشارد هو من يتولى مسألة «البحيرة السوداء» الآن».

فردت كلير بهدوء: «لست قلقة بشأن هذا. فما زال أمامنا وقت».

عندئذ، هتفت هيلين وقد أصيبت بصدمة: «آه، لا، فدنزل على عجلةٍ من أمره».

- دعكِ منه الآن، وانتبهي إلى نفسك وحسب.

وعلى مدى الأسابيع التالية، انشغلت كلير بما يفوق العادة. ويعدّ هذا غير مألوف، فالناس لا يُقبلون على شراء المنازل في الشتاء. لكن كلير شهدت شتاءً حافلاً بالأعمال هذه المرة. فقد قامت شركة ببناء بناياتٍ ضخمة تضم شققاً فخمة، وتطل على الميناء، ولما عجزت عن بيع معظمها، لجأت إلى تأجيرها، عوض أن تتركها خالية. فكلفت كلير بالعثور على مستأجرين، مما دفعها إلى قضاء الوقت برفقة أي زبونٍ مهتم بالأمر، في جولاتٍ حول المكان، واتفاقاتٍ حول الإيجار.

وبما أنها أمضت معظم الوقت خارج المكتب، فقد عاد والدها ليساعدها قليلاً. لكن، ورغم ذلك، يبقى عليها إعداد العديد من التقارير.

وفي إحدى أمسيات شهر تشرين الثاني، كانت تجلس إلى مكتبها، منكبة على العمل، في وقتٍ أغلقت فيه كل المتاجر الأخرى، حين رنّ جرس الهاتف فجأةً.

فأجابت بتأففٍ: «آلو؟».

- تبدين حادّة الطباع.

أحسّت بتيارٍ كهربائي يسري فيها، لكنها تظاهرت بأنها لم تعرف صاحب الصوت، وأجابت ببرودة: «من المتكلم؟».

فضحك حتى بعث الاحمرار في خدّيها، ثم قال: «اسمعي، سأرسل فريقاً من الرجال إلى «البحيرة السوداء»، وسيقدمون لي توصياتٍ تتعلق بكيفية تجديد المكان من دون القضاء على روحه القديمة. فهلاّ أرسلتِ لهم المفاتيح ليوم؟ مهندسي هو برنار آتكينز، وسيتصل بك هذا الأسبوع».

- حسناً، لكن لا يمكنك أن تحدث أي تغيرٍ في المنزل، قبل أن تمتلكه

فعلاً.

ـ أعلم ذلك. وكم تحتاجين من الوقت، قبل أن يصبح العقد جاهزاً للتوقيع؟

ـ سيحتاج هذا لأسبوع أو اثنين.

ثم توقفت قليلاً، قبل أن تجيب بصوتٍ أكثر برودة من ذي قبل: «أتوقع أنك عرفت بمرض هيلين؟».

ـ نعم، لقد تلقيت منها رسالة تفسير، وإن عدت قبل أن ترحل إلى مايوركا، فأتفقدها حتماً.

فسارعت تجيب: «لن أفعل ذلك لو كنت مكانك. فهي تحتاج إلى الراحة الكاملة، ولا يمكنها أن تستقبل زواراً».

عندها تغيّر صوته، وأضحى ناعماً حتى اقشعر بدن كلير: «لكنها سترغب برؤيتي».

عضت على شفتيها، وردّت: «قد ترغب في ذلك، لكن لن يكون ذلك لصالحها».

فأردف وقد ازداد صوته نعومةً: «أنت لا تحبينني كثيراً، أليس كذلك يا آنسة سامر؟».

ـ أنا لا أعرفك لدرجةٍ تسمح لي بتكوين ولو رأيٍ بسيطٍ عنك.

فتمتم: «حين أعود، سأحرص على أن تغيّر ذلك».

فما كان منها إلا أن هتفت: «عليّ أن أنهي المكالمة، يا سيد بلاك. فأخشى أنني مشغولة جداً، لكنني سأتأكد من حصول المهندس على المفاتيح، مع السلامة».

وبسرعةٍ، أغلقت كلير السماعة، قبل أن يضيف كلمة أخرى. ثم بقيت تحدق في الشارع المظلم الخالي، ونبضها يخفق في حنجرتها بشدة. وضعت يدها على عنقها بعصبية، ولما ضغطت على بشرتها، أحست بالدم يتجمّع تحت ضغط أناملها.

وما لبثت أن أخفضت يدها، وهي تذكّر نفسها بغضب أنه من الضروري ألا ينال منها هذا الرجل، لا سيّما أنه الآن في الناحية الأخرى من المحيط الأطلسي، وسيبقى هناك لمدةٍ طويلة، كما ترجو. لكن، في حال عاد، فلا نية لها بتعزيز أواصر المعرفة بينهما أبداً!

وبعد مضي ساعة، عادت إلى البيت، ولم تفاجأ إذ وجدت أن أحداً لم يقم بإعداد الطعام بعد. وقد جرت العادة أن توزع الأدوار بين أفراد العائلة، لكن، مع الوقت، صارت كلير تعدّه لسببٍ أو لآخر. فوالد كلير يتكفّل بشراء الحاجيات، إلا أنه لا يهوى الطبخ، ولاً يُعَدّ، إلى ذلك، طاهياً ماهراً، وكذلك هي الحال بالنسبة للباقين. ولطالما اعتقد روبن وجايمي أن الطبخ مهمّة الفتيات. أما لوسي، فتملك نية تحضير الطعام دائماً، إلا أنها غالباً ما تسافر مع أحلام اليقظة، وتنسى الأمر.

لم تكن لوسي في المنزل ذلك المساء، بل وصلت في منتصف العشاء، ثم هتفت بسعادةٍ، وهي تجلس في مقعدها المعتاد، وتملأ طبقها من وسط المائدة: «آه، رائع! سجق وبصل».

فأنّبها والدها: «كان من المفترض أن تعدّي الطعام هذا المساء يا لوسي!».

بدأت لوسي تئن: «آه، لا.. عرفت أنني نسيت أمراً ما.. من طبخ إذاً؟».

فتساءل والدها بسخرية وهو يرمقها بنظرةٍ اتهامية: «ومن تظنين؟».

ـ أنا آسفة يا كلير، لقد نسيت حقاً! بل غاب ذلك عن ذهني تماماً! سأنوب عنك ما إن يحين دورك ثانية، فمتى يقع هذا؟

ـ غداً.

ـ حسناً، لن أنسى.

ثم نظرت إلى صحنها وأردفت: «لم أتلقَ أي رسالةٍ من مايك اليوم أيضاً. وها قد مضت عشرة أيام على رسالته الأخيرة، أرجو ألا يكون

مريضاً».

فسارعت كلير تجيب وهي تراقب أختها بقلق: «بل لعلها مشاكل البريد».

كانت لوسي رقيقة وحساسة، وتُجرح بسهولةٍ. لذلك، تنفست الأسرة الصعداء عندما التقت بمايك دانكن قبل سنة، فيما كانت لا تزال في الجامعة. أما مايك، فكان يتابع دراساتٍ عليا في الجامعة نفسها، ويعد أطروحته فيها، وهو يكبر لوسي بأربع سنين، وقد اكتسب خبرة في عمله قبل أن يبدأ بإعداد الأطروحة.

وسرعان ما أحبته الأسرة بكاملها، وسُرّت لمّا خطبت لوسي إليه، فهو شاب هادئٌ ومثابرٌ ومحبّ. لكنه ما لبث أن تلقى عرضاً للعمل في أفريقيا لسنةٍ واحدة كأستاذ في دار المعلمين هناك، فأصر على تأجيل الزواج حتى عودته. وافقت العائلة بأكملها مجدداً، مع أن كلير ظلت تشك في دوافعه من حين إلى آخر.

ومع أن لوسي ما زالت شابة، والسنة سرعان ما تنقضي، إلاّ أنّ كلير أدركت أن غياب مايك بات يقض مضجع أختها.

مضى على سفره ستة أشهرٍ، ومن المفترض أن يعود في الربيع استعداداً للزواج. وخلال هذه المدة، واظب على بعث الرسائل الخطية والتسجيلية أيضاً، لكن الأوراق لا تماثل وجوده إلى جانبها. لذلك، أحست لوسي بالوحدة والملل غالباً.

وما لبثت أن تمتمت، وهي تتصنع ضحكة لم يصدقها أحد: «لا بأس ما دام لا يقابل فتاةً أخرى!».

فتبادلت كلير ووالدها النظرات، لكن أيّاً منهما لم يتفوه بكلمةٍ. ومع ذلك، تكهنا بما يشغل بال كلٍّ منهما. فماذا لو صحّت مخاوف لوسي؟ وأنبأهما الارتعاش في شفتيها بالجرح العظيم الذي قد يحدثه فيها ذلك.

وهتف جايمي، وهو لا يبالي إلا بنفسه: «هل لي بحلوى الشوكولا؟

بالمناسبة، أقلت لكم ماذا أريد كهديةٍ للميلاد؟ لقد أعددت لائحة، توفيراً لوقتكم، ولمساعدتكم».

ـ لا تأتي على ذكر الميلاد حتى.

وما لبثت كلير أن أطلقت تنهيدةً عالية وهي تتذكّر كل العمل الذي يستوجبه موسم الأعياد. عليها أن تعدّ لائحةً بمهماتها، ولكن في الوقت الحالي، أرادت أن ترجىء فكرة الميلاد حتى تعتاد عليها.

ثم أمر جورج سامر ابنه الأصغر: «كُل الحلوى، ثم ساعد في تنظيف المائدة».

وراحت كلير تراقب جايمي يضيف حصةً جديدة من الشوكولا، وذهنها غائبٌ عنه كلياً. في الحقيقة، كانت تفكر في دنزل بلاك... سيتطلب منه تجديد «البحيرة السوداء» أشهراً عديدة، فهل سيقيم في أمريكا في غضون ذلك؟ لا بد أنه تلقى عروض عمل عدة، بعد نيله تلك الجائزة. وهي تذكر أنه غادر أمريكا لأن أحداً لم يكلفه بفيلم جديد. فماذا لو تغير ذلك الآن؟ حينها لن يضطر إلى الانتقال إلى هنا مجدداً، ولعله سيبيع المنزل ما إن يجدده.

أحست بنبضها يثب مجدداً، فشعرت بالانزعاج وعضّت شفتيها. بما أنها غير معجبة بالرجل، لم تراها تحفل به؟

وسرعان ما ظهرت بوادر كانون الأول، فهبت رياحٌ ثلجية من البحر إلى البلدة، فاكتست هذه منظراً رمادياً كئيباً، وقد وقعت أسيرة سماء تكدست فيها غيومٌ سوداء، تنبىء بالمزيد من الثلج.

وأخيراً، تلقت لوسي أخباراً من مايك. فوصلتها ثلاث رسائل دفعةً واحدة، بعد أن تأخرت في بريد أفريقيا، كالعادة في ذلك الوقت من السنة. وفيما غمر الحماس والارتياح قلب لوسي، ظلت كلير على قلقها، فتقلبات مزاج أختها الجامح تزعجها، لأنها تدل على سرعة تأثرها. وتمنت كلير لو أن مايك يعود إلى الوطن في وقتٍ مبكر.

ومن بداية هذا الشهر، أصبحت «البحيرة السوداء» ملكاً لدنزل بلاك بما خلق هياجاً في صحف لندن وشبكات التلفزة المحلية. وانطلاقاً من ذلك، اجتاح فريق تصوير وكالة كلير، وحاول أن يقابلها، لكنها طلبت منهم المغادرة، بمنتهى البرودة، ورفضت الإجابة عن أسئلتهم. ورغم ذلك، أذيع خبرٌ عن الموضوع على التلفاز في ذلك المساء.

- لمَ لم تقابليهم؟ فمن الروعة أن نراك على شاشة التلفاز!

فأجابت وقد رأت موافقة أبيها واشمئزاز أخوتها: «هذا يعدّ من آداب المهنة. فلا يجدر بي أن أتحدّث عن زبائني».

واستطاعت كلير أن تودع قسماً هاماً من أرباحها في المصرف. في الواقع، كانت أرباح الوكالة هذه السنة أوفر مما توقعت، وبدت الحالة المادية جيدةً جداً. فقالت لأبيها: «أظننا نستطيع أن نوظف أحداً ليساعدني في المكتب. على الأقل، بدوام جزئي».

وافق أبوها قائلاً: «وحينها ترتاحين من العمل في المناسباتِ، فأنا أكره أن أراك متعبة بهذا الشكل».

هزّت كتفيها بلا مبالاة وأجابت: «أنا بخير».

- لا أريد أن ينتهي بك المطاف كالمسكينة هيلين شيرارد.

فأجابت وعيناها الزرقاوان تنمّان عن غضبٍ عميق: «لن يحدث ذلك، فلا تقلق».

في الحقيقة، يدفعها تعقّلها إلى الاحتراس من أي رجلٍ، ومنعه من إخضاعها لهذه التجربة، لا سيما إن كان رجلاً كدنزل بلاك.

في وقتٍ لاحق من الأسبوع، وقعت على مقالٍ في الصحيفة عن النجمة التي مثلت في فيلم دنزل بلاك الأخير. كانت الصورة تبيّنها على نقالةٍ، في عيادةٍ في لوس أنجلوس، وقيل إنها تناولت جرعةً مفرطة من الهيروين، حتى شارفت على الموت. ونقلاً عن «صديق مقرب»، تبدلت حالة الممثلة منذ انتهائها من تصوير فيلم دنزل بلاك.

وأضاف الصديق: «لا يعود السبب إلى المخدرات، بل إلى الحب. فلم يرها كثيراً خلال الأشهر المنصرمة. أما هو، فقد أنهى الفيلم، وأنهى معه علاقتهما، مما جرح قلبها».

حدقت كلير في الصورة المبهمة، وتراءى لها التعبير المأساوي على وجه الممثلة، وفي عينيها السوداوين الشبيهتين بالأشباح. ألم تبدُ هيلين على هذه الصورة مؤخراً؟ ترى، ماذا يفعل هذا الرجل في النساء اللواتي يغرمن به؟

وفي عطلة نهاية الأسبوع، استأجرت كلير الفيلم من متجر الأفلام المحلي، وشاهدته مراتٍ عدة. سحرها الفيلم نفسه وجمال الممثلة، وكان عليها أن تقرّ بمهارة دنزل في الإخراج، فالتصوير جميلٌ، بل ساحر، ومختلفٌ عن أيّ فيلم شاهدته من قبل. أما المشاهد الحميمة، فقد صوّرت برقةٍ زادت جوها الحميمي.

وقبل أن تخلد للنوم، استلقت على السرير في الظلام وهي تفكّر في الفيلم، وفي دنزل بلاك. ولمّا شاهدت الفيلم ثانيةً، استنتجت أنه رجلٌ ذكيّ ومعقّد وخطير.

وحين أرجعت الشريط إلى صاحب المتجر، سألته إن كان يملك أفلاماً أخرى لدنزل بلاك، فسلّمها شريطاً، قضت الليلة التالية في مشاهدته، مرات عدة أيضاً. وبعد ذلك، شاهدت أفلامه كلّها في سلسلةٍ سريعة، وهي تحاول أن تكتشف شخصيته من خلال أسلوبه في الاخراج. وهي المرة الأولى التي تولي فيها مخرجاً كل هذا الاهتمام، أو تحاول سبر أغواره من خلال نوعية العمل الذي يقدّمه. وأدركت أن في أفلامه أدلةً موزعةً هنا وهناك.

وفي عشية الميلاد، أغلقت الوكالة مبكراً، أي ما إن تجاوزت الساعة الرابعة بقليل. ثم شقت طريقها في الشوارع المكتظة بالمارة، وراحت تسرق اللحظات الأخيرة بحثاً عن هدايا الميلاد.

راحت تحدق في واجهة أحد محال الملابس الداخلية الغالية الثمن، حين أحسّت بشخصٍ يتوقف وراءها. رفعت نظرها بشكلٍ غريزي إلى الواجهة

الزجاجية لتشاهد صورة الغريب، لكنها لم ترَ أحد.

وإذا بصوتٍ يرتفع من وراءها: «مرحباً».

تصلبت، ونظرت خلفها، ولمّا عرفت ذلك الوجه، سرت في جسمها قشعريرةٌ باردة. وكيف لها ألا تتعرّف إلى ذلك الشعر الأسود الناعم الذي يتدلى حتى الصدغ، وهاتين العينين الرماديتين الثاقبتي النظر، وهذا الفم القاسي.

وبقيت لثانيةٍ عاجزة عن الحركة، لا بل مشلولةً، وكأنها في كابوسٍ تواجه خطراً تعجز الكلمات عن التعبير عنه، وقد جمّدها رعبٌ كلي. وقفت تتفرس في هاتين العينين، وهي تشعر أن قوة الارادة فيهما تكاد تحرقها.

وسألها بذلك الصوت الغامض العميق: «لم تنسيني، أليس كذلك؟».

في تلك اللحظة، تمنّت لو تستطيع أن تومىء برأسها وتجيبه أنها نسيته. لكنها لن تكون إلا كذبة تعرف تمام المعرفة أنه لن يصدقها.

على أي حال، لم ينتظر منها أي إجابة، بل تابع بهدوء: «ماذا ستشترين؟ القميص الأبيض المحتشم، أم ثوب النوم الفيكتوري الفضفاض الذي يزرر من الرقبة حتى القدمين؟ فقد رأيتك تنظرين إليهما. لماذا لا يدفعك الحماس مرةً إلى شراء ثوبٍ مثير، كهذا الثوب الأسود؟ فباستطاعتي أن أتصورك فيه».

ثم ابتسم ابتسامةً ساخرةً عريضة زادتها ضيقاً، وأحست بلونٍ حارقٍ يجتاح محيّاها.

طرفت عيناها، وحاولت أن تتخلص من السحر الذي يطوقها، فيما خفقات قلبها تزداد سرعةً، وأنفاسها اضطراباً. وسرعان ما أحست وكأنها تستيقظ من سباتٍ شتوي وبدا لها أن أعضاء جسدها كاملةً أخذت تعمل تدريجياً، بعدما توقفت مدة قصيرة.

وغمرها شعورٌ قويّ بالدوار، جعلها تستشيط غضباً، فردّت عليه بحدة: «لا أتسوّق لنفسي، بل أبتاع هدايا الميلاد!».

لم تكن تثق أنّ باستطاعتها المحافظة على أدبها طيلة فترة حوارهما. لذا، كان عليها أن تبتعد عن التأثير الطاغي الذي يتملّكها ما إن تقترب منه. وهكذا فعلت حتى كادت تصطدم بباب المتجر. فتبعها بدوره، ورجلاه الطويلتان تسمحان له بمجاراتها من دون عجلة. ثم أضاف: «لأختك الصغيرة الجميلة؟».

ولمّا سمعت أنه ما زال يذكر لوسي، تملكها الأسف. وأدركت باشمئزاز أن عليها أن تحول دون لقائه أختها مجدداً. فآخر ما تريده هو أن يلحق الأذى بها، لا سيّما أنها ما زالت حساسةً في الوقت الحالي. وقد يطيح هذا الرجل بعقلها ويجرحها كثيراً، تماماً كما فعل بهيلين والنجمة السينمائية. لكن كلير مستعدةٌ لقتله إن هو أقدم على إيذاء أختها.

توقّفت عند باب المتجر وسألته: «أنت لا تعيش في «البحيرة السوداء»، أليس كذلك؟ فقد سمعت أن البنّائين باشروا عملهم قبل رأس السنة».

فأجاب بجفاء: «معلوماتك دقيقةٌ جداً. من المدهش كم تنتشر الإشاعات في بلدةٍ صغيرة. وبالحديث عن الإشاعات، أود أن أشكرك لأنك رفضت التحدث إلى الصحافة».

فسألته بتعجب: «وكيف عرفت ذلك؟».

ـ لقد أخبرني أحد الصحافيين. ويبدو أن اهتماماتهم قد خبت الآن. ولكن، في حال تعطشوا إلى المزيد من المعلومات مجدداً، سأكون شاكراً لو حافظت على تكتمك. ففي الأشهر القليلة المقبلة، سأكون مكباً على أعمالي، ولا أريد أن أضيّع الوقت مع وسائل الأعلام.

أومأت ببرودة وقالت: «أفهم ذلك. إنما، أستنتج أنك تلجأ إليها حين تخدمك».

فاحتدّت في عينيه نقطتين سوداوين وأجاب: «نعم، فهي شرٌّ لا بدّ منه».

ـ وبالحديث عن هذا، عرفت من الصحافة أنك فزت بجائزةٍ عن

فيلمك الأخير.

كانت تنظر إلى الأسفل في أثناء حديثها، لكنها ظلت تراقبه من خلال أهدابها، وأردفت: «أهنئك».

فراقبها هو الآخر، وقد ضاقت عيناه، وعلت السخرية محيّاه وقال: «شكراً».

وازدادت كلير جرأةً في كلامها: «من المؤسف أن نجمتك باتت متوعكة منذ انتهاء الفيلم!».

وإذا بها تلاحظ ملامح وجهه تشتد، وفمه يقسو، فيما عيناه الرماديتان يكسوهما الجليد، وما لبث أن أشاح بوجهه بعيداً.

ـ من حسن حظي أنني رأيتك. فقد مررت بمكتبك منذ قليل، أملاً أن تعثري لي على مكانٍ أقيم فيه لستة أشهرٍ أو سنةٍ، بانتظار أن يجهز المنزل. وتكفيني شقةٌ، أو حتى كوخ صغير.

فردّت كلير باستمتاع: «أخشى أنّ ما من مكانٍ مناسب في سجلاتي في الوقت الحالي. لم لا تبحث على طول الشاطىء، أو ربما في نواحي يورك؟».

فرماها بنظرةٍ قاسية وقال: «أحتاج إلى السكن بالقرب من «البحيرة السوداء» طالما أن أعمال التجديد تجري هناك».

عندئذ، ابتسمت كلير ببرودة وأجابت: «حسناً، إذا صادفتُ أي مكانٍ، فسأعلمك. هل تقيم في فندق جيمي ستور مجدداً؟».

ومضت عيناه: «كلا، إذ يبدو أنّ لا غرف شاغرة فيه. ففي الوقت الحالي، تقيم هيلين هناك، وما من غرف إضافية. لكنني أقيم هنا في البلدة».

بالكاد يعدّ هذا مفاجئاً، لا سيّما بعد ما سبّبه لهيلين!

فقالت والبرودة البارعة نفسها في صوتها ووجهها: «أنا متأكدة من أنك ستكون مرتاحاً تماماً هناك، والآن علي أن أذهب، إلى اللقاء».

وفيما هي تستعد للذهاب، تناهى إليها صوت لوسي، فأحست بقلبها

يقع كحجرٍ: «كلير، انتظري دقيقة، كلير...».

نظرت حولها وهي تعض شفتها، وإذا بلوسي تعبر الشارع، وهي تتفادى السيارات بأبواقها الصاخبة، وتلتف حول حافلةٍ، راح سائقها يزعق فيها بغضب.

ولما وصلت أخيراً، قالت بلهاثٍ: «أنا محظوظة... لأنني لمحتك... أيمكنك أن تقرضيني عشرة جنيهات؟ لقد نفذت مني النقود، ودفتر شيكاتي ليس بحوزتي. لكنني سأحرر لك شيكاً، ما إن نعود إلى المنزل».

ـ حسناً.

وراحت كلير تبحث في سرعةٍ في حقيبتها، حتى وقعت على العملة المناسبة.

ـ إليك المال.

وإن كانت تأمل من السرعة أن تحول دون لقاء لوسي بدنزل بلاك، فقد خاب أملها. إذ رمقته لوسي بنظرة مهذبة، ثم عادت وتفرّست فيه. وفجأةً، علا التورد وجنتيها:

ـ أنت السيد بلاك، أليس كذلك؟ مرحباً، صرت أقرأ عنك في الصحف بعد لقائنا في المرة الماضية. ولا أصدق أنني لم أتعرف إليك حينها. لكن فكرة تواجد مخرج مشهور في غرينهاوي لا تصدق. فلم يخطر الأمر في بالي، كما أن كلير لم تتفوه بكلمةٍ واحدة.

فتمتم وقد لوى فمه بسخرية: «أختك امرأةٌ كتومةٌ جداً».

ثم رمقها بنظرةٍ جانبية تعمدت تجاهلها وأضاف: «وأنا لا أود أن أثير اهتمام وسائل الإعلام في الوقت الحالي».

ـ لا طبعاً. وأفهمك جيداً.

وسألته بحماس: «أنت لا تعيش في «البحيرة السوداء» بعد، أليس كذلك؟».

فأجابها: «كلا، لكنني أبحث عن مكانٍ أقيم فيه بصورةٍ مؤقتة في

البلدة. فإن كنت تعرفين مكاناً...».

- في البلدة؟

وحاولت لوسي بجهدٍ أن تفكّر في أي اقتراح، ثم أردفت: «أتقصد منزلاً؟ ألا تستطيع كلير أن تعثر على منزلٍ؟».

فردّ: «كلا، للأسف».

وسرعان ما التمعت عينا لوسي وقالت: «وجدتها! لي صديقةٌ تملك منزلاً واسعاً جداً، وقد أحالته شققاً. وقد تكون إحداها جاهزةً للإيجار في الوقت الحالي. أتريدني أن أسألها إن كانت مستعدةً لاستقبالك؟».

ولمّا تأملته كلير، لاحظت أنه لا يبدو متحمساً للفكرة.

وسألها ببطء: «هل هذه الشقق مستقلة؟ أعني، ألكلٍ منها بابها الأمامي؟».

- نعم، وفي الواقع، ليست الشقة كبيرة. بل تضم غرفةً واسعةً وحماماً صغيراً.

ثم ابتسمت ابتسامةً مشرقةً وأضافت: «ولكن، في حال توافرت، لن يضرك أن تلقي النظر عليها، أليس كذلك؟».

فضحك وأجاب: «صحيح».

وأجالت لوسي بصرها في الشارع العام:

- ترى، أين أجد الهاتف الأقرب؟ قد أقع على واحدٍ في مكتب البريد. سأتصل بجيني، وإن كانت الشقة شاغرةً، سأصحبك إليها الآن، لتتفحص المكان. انتظرني هنا، فلن أتأخر.

ولمّا اندفعت إلى مكتب البريد، قالت كلير بغضب: «لا أظنها فكرةً جيدة. فهذا النوع من التسويات محفوفٌ دائماً بالمشاكل».

فتمتم: «أوافقك الرأي، لكنني لا أريد أن أقضي الأشهر المقبلة في فندقٍ. وإن لم يكن لديك حلٌّ أفضل، فقد أجدني مضطراً إلى قبول عرض أختك. وبالمناسبة، هي تدخل البهجة إلى القلب، بالإضافة إلى أنها جميلة.

أحب وجنتيها، وذلك الفم الممتلىء الواسع، وأحب جمالها المليء بالحيوية والنابض بالحياة».

وما كان من كلير إلا أن عضت شفتها السفلى، وقد غمرها فجأةً شعورٌ بالخوف على لوسي. فهي لا تريد أن تماثل نهايتها نهاية هيلين، وتلك الممثلة المكسيكية الإيرلندية، فتمسي شاحبةً، وتفتقر للحيوية، فيما حياتها حطامٌ بحطام.

وتمتمت ببطء: «بالطبع، ما زال أمامك كوخي».

فحدّق فيها وهو يرفع حاجبيه: «ماذا؟ ذلك الذي لا سقف له؟».

- لقد أصلحت السقف منذ أسابيع خلت. في الواقع، انتهى معظم العمل الأساسي، وجهزت المنزل بالتدفئة المركزية والأسلاك الكهربائية الجديدة.

بدا مندهشاً وهو يسألها: «أقمت بكل ذلك بنفسك؟».

فردت وقد فرغ صبرها: «كلا، لقد تلقيت مساعدةً من بنّاءٍ أعرفه، لقاء ثمنٍ بخس، نظراً إلى أنني دبّرت له العديد من الأعمال. كما أنعمت عليّ هذه السنة بأرباح وفيرة، وأصبحت من الانشغال إلى حدٍّ افتقرت فيه إلى الوقت للعمل في الكوخ. لكن تم تجديد الديكور في بعض الغرف، كما أن أنابيب المياه صارت في حالٍ سليمة».

فأجاب دنزل بلاك بنبرة تعكس تسليةً واضحة: «ألهذا لم يباشر البنّاء العمل في «البحيرة السوداء»؟ الأنه منشغلٌ بالعمل لحسابك؟».

- لكنه ليس البناء نفسه. فالرجل الذي أستخدمه لا يطالب بأجرٍ مرتفع. وهو يعمل مع أخيه، وعلى الأرجح، لن يتمكن من تولي أمر مشروعٍ بحجم «البحيرة السوداء»، فقد يستلزم ذلك منه سنوات».

- حسناً، هل أستطيع أن أرى كوخك؟ الآن؟

- الآن؟ لكن الوقت متأخرٌ، والظلام يكاد يحل. أخشى أنّ عليك الانتظار حتى ما بعد عطلة الميلاد.

www.elromancia.com

- لكنني لا أريد الانتظار. اصحبيني إلى هناك الآن.

- لا أستطيع...

وقبل أن تكمل جملتها، رأت لوسي تسرع نحوهما، فقالت على عجلة: «لا تقل لأختي إنك ستستخدم منزلي. فأنا... لا أريدها أن تعرف... وذلك... لأسباب خاصة لا أستطيع مناقشتها».

وأحسّت بعيني دنزل بلاك الرماديتين الثاقبتين تخترقانها، وتقرآن الأفكار في عينيها، فأشاحت بوجهها المتوهج. في الواقع، لم تكن تريده أن يخبر لوسي خوفاً من أن تعرف مكانه، فتزوره كلّما خطر لها ذلك. بل أرادت أن تبعد دنزل بلاك عن طريق لوسي قدر استطاعتها.

أجابها بنعومة: «لن أخبرها، إن رافقتني لرؤية الكوخ الليلة».

فأحست أنها تريد صفعه وهتفت: «هذا مستحيل!».

عندها، هزّ كتفيه استهجاناً وقال: «بالطبع، المسألة تتعلق بك، إذاً، هل أخبر لوسي؟».

ونظرت إليه والشرر يتطاير من عينيها: «هل تقوم بابتزازي؟».

فالتمعت عيناه بتسليةٍ لا أثر للندم فيها: «إذا شئت. ففي عالمي، تتعلمين أن تستعملي الأسلحة المتوفرة كلها. أنت تملكين ما أريده، وفهمت أنك لا تريدين أن تكتشف أختك مخططاتك لسبب معين، لن أتكهّن به الآن. وكل ما أعرضه عليك هو صفقة، فما ردك؟».

باتت لوسي على بعد خطواتٍ فقط، لذا كان على كلير أن تفكّر بسرعة. وفي النهاية أومأت، ووجهها تكسوه حمرة الغضب.

- حسناً، أوافق على هذه الصفقة.

- إذاً، مرّي بي بعد ساعة.

وقبل أن تتمكن من الرفض، أقبلت لوسي لاهثة.

- كانت ردة فعل جيني عنيفة، وأخبرتني أن نحضر إليها تواً. هناك شقتان شاغرتان، ولكنهما في الطابق الأعلى. يمكنك أن تحصل عليهما معاً،

أو على واحدةٍ منهما فقط. ولكن أخشى أنّ ما من مصعدٍ، وواضحٌ أن السلالم كثيرة...

رأته كلير يعبس بشدة ثم يهز رأسه: «السلالم كثيرة؟ كلا، أخشى أن لا مجال لاستئجار الشقة إذاً. ولكنني أشكرك لتكبد كل هذا العناء يا لوسي، وأجدني مضطراً للرفض. على أي حال، لا تقلقي، سأجد مكاناً آخر. والآن عليّ الذهاب. أراكما لاحقاً، من دون شك».

وقبل أن تستوعب لوسي ما حدث، كان قد رحل، فالتفتت إلى كلير بخيبة أمل.

- آه، يا إلهي، ستحزن جيني بشدة لأنه لن يأتي. فقد كانت متحمسة جداً، نظراً إلى أنها تهوى الأفلام، وتعتقد أنه مخرجٌ ممتاز. ولمّا اتصلت بها، أخبرتني أنها ستجهّز المكان.

- إذاً من الأفضل أن تتصلي بها مجدداً، لتوفر على نفسها هذه المشقة.

فتنهدت لوسي بعمق وقالت: «نعم، يجدر بي ذلك».

وفيما كانت لوسي تعود أدراجها إلى مكتب البريد، هتفت كلير: «أراك بعد قليل».

ثم ذهبت في الاتجاه المعاكس. كان عليها أن تستقل سيارتها وتترك المنزل قبل أن تعود إليه لوسي، وإلا اضطرت إلى الإجابة عن أسئلة ليس في نيتها أن تجيب عليها. فما كان منها إلا أن مشت سريعاً، وهي تقطب جبينها بغضب.

إنها الآن ملزمةٌ بتأجير الكوخ، كي يقيم فيه دنزل بلاك فترةٍ له أن يحدد مدتها. وهذا آخر ما تتمناه. ولكنه بطريقةٍ أو بأخرى، أحبط مناوراتها. وأحست كلير أنه غالباً ما ينجح في مساعيه. لكنها، في المستقبل، ستراقبه عن كثب، ولن تدعه يلحق بها الخسارة مجدداً.

***

٣ ـ مصّاص الدماء

يقع كوخ كلير على بعد نصف ميل من البحيرة السوداء، وقد بُني وفق الطراز الفيكتوري، من الصوان والحجر، ويعلوه سقفٌ رماديٌ من الأردواز. شيده في الأصل فلاحٌ محليّ لإيواء خرافه، وهو قريبٌ من المراعي حيث ترعى النعجات، بانتظار أن تضع صغارها في الأشهر الباردة الأولى من الربيع.

يضم الكوخ أساساً غرفتين وحجرة لغسل الأطباق في الأسفل، وغرفتين أخريين في الأعلى. لكنه خلا من أي حمام، أو حتى مغسلةٍ. وقبل سنواتٍ، شبّ حريقٌ هائل في الكوخ، فترك فترةً طويلة خالياً، متداعياً، قبل أن تقدم كلير على شرائه. ولمّا كان السقف منهاراً، والنوافذ مهشمة وورق الجدران متقشّر، تمكنت كلير من شرائه لقاء مبلغٍ زهيد، وقرّرت أن تعيد تصميمه وفق رغبتها.

وقف دنزل بلال في غرفة الجلوس، يتأمل الجدران الناصعة البياض، والموقد الأردوازي الذي بقي سالماً رغم الحريق، إضافةً إلى قطع الأثاث الموزعة في أرجاء الغرفة، التي اشترتها كلير بثمنٍ بخس من المزادات. وما لبث أن تمتم:

ـ هذا مثير للاهتمام! ليس حميماً تماماً، ولكنه مثير للاهتمام، لا سيّما أنه ذوقك.

فتذمرت بدفاع: «لم أنتهِ من الديكور بعد، أما الأثاث فمؤقت، وذلك حتى أقرّر مظهر المكان النهائي».

ـ له جوٌّ خاص، فهذه المصابيح مثلاً تناسب «البحيرة السوداء»، بل تبدو وكأنها تنتمي إليها.

فاحمر وجه كلير وقالت: «لم أتِ بها من هناك، إذا كان هذا ما تلمّح إليه».

رمقها بعينين باردتين، وأضاف: «لم أفعل. لا تردي بنزقٍ على كل ما أقوله، فذلك أشبه بمحادثة مخلوقٍ شرس».

وقبل أن تبدي كلير أيّ رد فعل، أردف بنعومة: «لكني مستعدٌّ لتقديم عرضٍ».

فتصلبت قبل أن تهتف: «ماذا؟».

أجابها بصوتٍ رقيق: «بشأن المصابيح».

ـ آه.

استرخت مجدداً، إنّما قبل الأوان. إذ سألها وفي عينيه سخريةٌ باردة تتعارض مع الدم الحار الذي صبغ بشرتها: «وماذا ظننت أنني أقصد؟».

ومرةً أخرى، لم تملك وقتاً للإجابة، إذ بادرها بسؤالٍ جديدٍ: «ماذا عن الحرارة؟».

فرمقته بارتباك، قبل أن يفسّر كلامه: «ماذا عن نظام الحرارة في هذا الكوخ؟».

ـ تنبعث التدفئة المركزية من الموقد في المطبخ.

ولم تستطع كلير أن تعرف تماماً هل يطلق ملاحظات ذات حدّين، أم أنها تتخيل الأمر ليس إلا. أهي شديدة الحساسية اليوم، أم أنه فعلاً يتسلى على حسابها؟ ومهما كان السبب، فقد دفعها الانفعال إلى الخروج من غرفة الجلوس، والتوجّه إلى الغرفة المقابلة، التي تضم المطبخ ومائدة الطعام. وما كان منه إلاّ أن تبعها، ثم توقف فجأة وقد علا حاجباه دهشة.

ـ هذه غرفةٌ مختلفة. أكاد أحسّ أنني بحاجةٍ إلى نظاراتٍ شمسية لشدة النور هنا؟

بالفعل، كانت غرفةً ذهبيةً دافئة. فالجدران مكسوةٌ بورق الصنوبر الذي يحفظ الحرارة، ويناسب الطاولة والكراسي المصنوعة من خشب الصنوبر أيضاً. والخزانة الطويلة تحوي عدداً من الأواني الخزفية الصينية التي دأبت كلير على جمعها على مرّ السنين. أما ستائر النوافذ، فتزينها تفاحاتٌ حمراء لماعة، وأوراقٌ خضراء كبيرة، تضفي على الغرفة جوّاً طفولياً، مفعماً بالحيوية، ونابضاً بالفرح.

بدا ذاهلاً لا يصدق عينيه وهو يقول: «أهذا ذوقك؟».

ودّت كلير لو تردّ بالايجاب، لكن بدا من الواضح أنه لن يصدقها. وكم يزعجها أن يكون على حق! فهي لا تريد أن يكوّن رأياً عنها. غير أنها اضطرت أن تقرّ بالحقيقة على مضض: «في الواقع، تركت لأختي حرية انتقاء الأثاث والستائر».

فأعلن، وقد رفع حاجبيه الأسودين بسخرية: «آه... إنها لوسي إذاً... وهي نسخةٌ كبيرة لأليس في بلاد العجائب! نعم، هذا أكثر منطقية».

واستدارت كلير وخرجت من الغرفة، ثم التفتت إلى الخلف وقالت: «في الأعلى، غرفةٌ مفروشةٌ واحدة».

تبعها، فيما وقع خطواتهما يعلو فوق السلالم المجوفة المطلية حديثاً.

تمتمت: «لم يتسنَّ لي الوقت لأبتاع بسطاً».

ـ لكنني أحبّ هذا الخشب المكشوف، فهو يبدو رائعاً.

ـ يعني ذلك أنه يحتاج إلى أن يصقل جيداً. أعرف امرأةً في القرية تقوم بأعمال التنظيف، لكنها تطلب أجراً مرتفعاً، نظراً إلى أنها تحتاج لسيارة لتصل إلى هنا، وقد نظفت المنزل بعد أن غادر البنّاء! لذا، فهي تعرف المكان.

ـ هل يمكنك أن تطلبي منها تنظيف المنزل مرّة في الأسبوع. أظن ذلك يكفي، فالمكان ليس كبيراً، ما رأيك؟

ـ حسناً، سأتصل بها، وأطلب منها أن تخابرك، في حال قرّرت أن تستأجر المكان.

ـ لقد سبق وقرّرت، سأستأجره لستة أشهر.

وقف في غرفة النوم الأساسية، وراح يتأمل الجدران البيضاء العارية، والسرير الفردي الضيق، ثم نقل ناظريه إلى الخزانة التي تحتلّ جانباً مهماً من الحجرة. كما لاحظ كرسياً منجداً وحيداً من المخمل الزهري اللون، ومرآةً من الطراز الفيكتوري، ابتاعتهما كلير من البلدة في العام الفائت.

بدأت كلير تشكو، وهي لا تزال تمانع فكرة استئجاره كوخها: «أخشى أنك لن تكون مرتاحاً هنا».

فرمقها بنظرة جافة وعلّق: «بل سأكون بخير، ما دمت لا تمانعين إن جعلت المنزل أكثر صلاحيةً للسكن، أي إن أضفت بعض لوازمي الخاصة، كرسومات، وكتبٍ وجهاز موسيقى».

ولم يكن باستطاعة كلير أن تبدي أي ممانعة. فاكتفت بتأمله وهو ينتقل إلى النافذة، لينظر إلى البستان المظلم، فيما ظله الطويل ينعكس على الحائط الأبيض بطريقةٍ مخيفة.

في الحقيقة، لم يكن من السهل عليها أن تفكّر في أنه قد يعيش هنا، في البيت الذي أعدته لنفسها. فمنذ اشترت الكوخ، وهي تشعر بالحماس لهذا التصرف المليء بالتحدي الذي أقدمت عليه. ولمّا وصل الخبر إلى أسرتها، أجفل أهلها، ثم ما لبثوا أن وجدوا الفكرة مسلية، قبل أن يشعروا بالسخط مجدداً. فكيف تقدم على شراء كوخٍ متداع؟ وما الذي دعاها إلى ذلك بحق السماء؟ بل لماذا تحتاج إلى منزلٍ مستقلّ؟ فلديها منزلٌ، يجمعها بأبيها وأخويها. أما لوسي، فستتزوج قريباً، وترحل لتعيش مع مايك في مكانٍ ما.

وحينها، من سيعتني بمنزل العائلة؟ من سيكون أمّاً حنوناً لروبن

وجايمي؟ وقرأت كلير في أعينهم أنها لا تستطيع الرحيل، فهم يحتاجون إليها.

ولمّا كانت كلير تعرف ذلك، فارقتها كل نيةٍ في هجرهم. فهي تتمتع بحسٍ قويّ بالمسؤولية وتحب عائلتها، لكن فكرة الحصول على منزلٍ مستقل ظلت تعنّ على بالها.

وأصبحت، كلّما احتاجت إلى الهروب من مشاكل الواقع، تلجأ إلى هذا الكوخ. لذا، كرهت أن ترى دنزل بلاك يقيم فيه. وعرفت أنه، لو سكن فيه أولاً، فسيراودها شعورٌ غريب كلّما أقبلت إلى هذا المكان.

سألها: «أيمكنني الانتقال إلى هنا حالاً؟».

فنظرت إليه كمن لا يصدق: «ماذا تقصد بحالاً؟».

ـ أقصد غداً؟

ـ لكن غداً يصادف عيد الميلاد، ألن تكون مشغولاً برؤية أهلك؟

فقال بإيجازٍ وبنبرة من يوصد في وجهها باباً: «لا عائلة لي».

وتحرك فضولها على الفور. أمات أهله؟ أليس لديه إخوة وأخوات؟ ولكن، لا بد أن له عمةً أو خال في مكانٍ ما! فكيف لأحدٍ أن يكون من دون عائلةٍ على الإطلاق؟

وما لبث أن أعلن: «لم تأتِ على ذكر الإيجار بعد. فكم تريدين في الشهر؟».

لم تكن كلير قد فكّرت في الموضوع، لكنها تعرف المبلغ المطلوب مقابل ملكياتٍ كهذه. لذا، لم يتطلب منها الجواب ثوانٍ، وتعمدت أن تطلب منه إيجاراً مرتفعاً، عساه يغيّر رأيه. لكنه أومأ برأسه:

ـ حسناً! قد نطلب من هيلين أن تجهز لنا عقد إيجار لستة أشهر.

فأجابت وقد أزعجها أن يقبل من دون أن يطرف له جفن:

ـ فلندع ذلك إلى ما بعد رأس السنة. فكما تعلم، لن تجد أحداً في المكتب قبل ذلك الوقت. كما أنّ نزل «بلاك بور» يجيد الإحتفال بالميلاد.

وستكون مرتاحاً أكثر هناك.

عندئذ، ردّ بنبرةٍ فظة: «أنا أكره الميلاد، وأتحرق شوقاً إلى تفويته».

وما كان من كلير إلا أن حدقت فيه بكآبة وسألته: «أتكره الميلاد؟ أتعني أنك لا تحتفل به إطلاقاً؟».

ـ بالنسبة لي، هذا اليوم يماثل غيره من الأيام. وهكذا، سأنتقل إلى هنا في الغد، وأمضي الوقت في ترتيب كتبي ورسوماتي بسلام. وسأعدّ حساءً وسلطةً للغداء. ولن أشاهد التلفاز، أو أستمع إلى المذياع طيلة ذلك الوقت، بل سأكتفي بالاستماع إلى الموسيقى أثناء عملي.

فتمتمت: «أنا آسفة».

وإذا بعينيه الرماديتين تلمعان بذلك الوميض الأسود الذي عرفته من قبل، وقال: «إذا كنت تأسفين من أجلي، فلا داعي لذلك، بل أشعري بالأسف على نفسك. سأكون سعيداً جداً هنا، فيما أتجاهل الميلاد. ففي ذهني ذكرياتٌ بغيضة عن الميلاد التقليدي، وأنا متأكدٌ من أن يومي سيفوق يومك تسليةً وهدوءاً».

وراحت كلير تفكّر في كل العمل الذي ينتظرها، من جلبة الميلاد الصباحية، إلى إيقاظ الصبيّان، فمشاهدة ترانيم الميلاد على التلفاز. وكانت تحرص على ذلك، كي يتسنى للصبيّان أن يسمعاها، فيما يقومان بمساعدتها على مضض، ويطلقان الشكوى، وعيونهما تتألق حماساً. كما تذكرت هدايا الميلاد وهي تفتح، ونباح الكلب وقد أثير حتى الجنون، بسبب هذا النشاط غير المألوف. واستعادت رائحة ديك الحبش المحروق في الفرن، فيما هي تسرع غاضبة لإنقاذه، وسط ضحك الصبيّان. وعادت إليها ذكرى تدافعهما أثناء ترتيب المائدة، بينما لوسي تقدّم الطعام، وجدالهما وتشاجرهما، قبل أن يتركا لها الفضلات لتنظفها. عندها، يعمد أبوها إلى النوم في كرسيه الهزاز، فيما تقوم بغسل الأطباق مع لوسي، ويخرج أخواها في نزهةٍ في جوٍّ باردٍ جداً يصرفان فيها تلك الطاقة الزائدة كلها. ويهدأ البيت أخيراً حوالى

الساعة، فترتمي في كرسيّ قبل أن يعودا مطالبين بشطائر ديك حبشٍ، وحلوى الميلاد.

رفعت نظرها إلى دنزل بلاك، ووجهها البيضاوي الهادىء مفعم بالدفء والمرح.

ـ سيكون يومي ساحراً.

فتبدل وجهه، وتعمّد أن يتفحّصها بنظراته: «ترى، فيمَ كنت تفكرين؟ في رجلٍ؟ أهو عشيقك؟ لا ترتسم هذه النظرة على وجه امرأة إلا حين تفكر في رجلٍ».

عندئذ، تألقت عيناها بوميضٍ جليدي، ثم أشاحت بوجهها بعيداً، وحانت منها التفاتةٌ إلى ساعتها بحركةٍ تنم عن فروغ صبر.

ـ أريد أن أعود إلى منزلي يا سيد بلاك. قد لا تحب الميلاد، ولكنني أحبه. وما زلت بحاجةٍ إلى عدد من الهدايا، عدا عن المهمات التي عليّ إنجازها قبل أن آوي إلى الفراش الليلة.

فعلّق: «كما أنك لا تحبين الإجابة عن الأسئلة».

تجاهلته، وتوجّهت نحو السلالم، ورأسها يضج بمختلف الأعمال التي عليها إتمامها، من الخضار التي تحتاج إلى التقطيع والتخزين في البراد، إلى قالب الحلوى الذي عليها تحضيره.

ومع أن كلير تحب الميلاد، إلا أنه يترافق عادة مع أعمال كثيرة، لا يساعدها فيها أحد. عادة، يخرج أبوها مع أختها وأخويها الليلة، لينشدوا ترانيم الميلاد حول شجرة الميلاد الضخمة في ساحة البلدة. وهي عادةٌ درج عليها أهالي البلدة عشية الميلاد بغية جمع الأموال للمؤسسات الخيرية المحلية، والاستمتاع بوقتهم. وكانت غالباً ما ترافقهم، لكنها الليلة لا تملك وقتاً لذلك أبداً.

وبلغت بها العجلة حدّ الانزلاق على الخشب المصقول للسلالم والوقوع إلى الأمام. وكادت تقع بقوةٍ لو لم يمسك بها دنزل بلاك، ويحيط خصرها

بذراعيه.

وإذا بقلب كلير يخفق بين أضلعها تحت تأثير الصدمة. وبقيت ثانية أو اثنتين واقفةً في مكانها، لا تأتي حركةً، فيما هو يبقيها بين ذراعيه، ولا يسمع إلا نبضات قلبها.

وما لبث أن مال إليها، فأحست وكأنه ينقض عليها، فيما هي عاجزةٌ، لا تقوى حراكاً. وإذا بوجنتيه تلامسان خديها، حتى شعرت ببشرته، باردةً، ناعمة فسرت في جسمها رعشة حين خيّل إليها أنه سيعانقها.

لكن كل ما فعله هو سؤالها: «هل أنت بخير؟».

وكان السؤال من العنف بحيث انتشلها من غمرة النشوة وأعادها إلى أرض الواقع. فحرّرت نفسها من قبضته بارتجافٍ، ثم نزلت الدرجتين الباقيتين من السلم، وهي تقول بصوتٍ أجش: «نعم، أشكرك».

وأسرعت إلى الباب الأمامي ودنزل بلاك يتبعها من غير أن يكلّف نفسه عناء إسراع الخطى.

ولمّا عادت كلير إلى سيارتها، تنفست الصعداء، ثم انطلقت بعيداً. لكن سعادتها كانت لتصبح أضعافاً لو تخلصت من هذا الراكب ما إن تبلغ البلدة. لا سيّما أن وجودها وحيدةً معه هو بمثابة تجربةٍ مرهقةٍ للأعصاب.

وفيما كانا يسيران في شوارع البلدة، وقد أضاءت أنوار العيد المتاجر، نظر إليها دنزل بلاك بجفاء، وقال:

ـ أنظري إلى كل هذه المتاجر بثلجها الزائف وأشجار الميلاد! بات الميلاد مجرد سلعةٍ تجارية، ولا يحمل أي معنى ديني منذ زمن.

فرمقته كلير بنظرة جانبية باردة:

ـ هذا بالنسبة إليك ربما. لكن عائلتي تواظب على زيارة الكنيسة. وسنحضر قداس منتصف الليل هذه الليلة. ونحن غالباً ما نصلي عشية الميلاد، فهذا الطقس الديني هو الأحبّ إلى أنفسنا. وتشترك لوسي وأخواي في الترتيل، وتكون الموسيقى رائعة دائماً.

ـ دعيني أتكهن . . . إنها موسيقى آلات الغيتار .

أثارت نبرة الاحتقار في صوته سخط كلير، فردّت :

ـ كلا، لطالما كانت موسيقى الميلاد تقليدية، وتتألف من ترانيم الميلاد، أو أناشيد لاتينية قديمة وكلاسيكية . ونحن نملك آلة أرغن ممتازة . وتقول لومي إنهم سيغنون الليلة لموزارت وبليسترينا .

ثم توقفت عن الكلام وخففت سرعتها، قبل أن تشير بيدها إلى اليسار، وتضيف :

ـ ها هي الكنيسة . إنها مصدر فخرنا، فهي واحدةٌ من أرقى الكنائس في هذه الناحية من انكلترا .

مال دنزل بلاك إلى الأمام ليحدق في المبنى العالي الذي يماثل مباني القرون الوسطى، ببرج ناقوسه الذي يعانق السماء الحالكة، وبسقفه المقنطر، وجدرانه المبنية من حجر الصوان الرمادي . ويمتد حول المبنى فناء أخضر صغير يحيط به سياجٌ حديديّ من العصر الڤيكتوري، فيما الأعشاب تنمو حول الأضرحة القديمة، التي تظللها أشجار معمّرة .

ـ لِمَ لا تأتي الليلة وتستمع إلى الأناشيد؟

وما إن تفوهت بالدعوة حتى رأته يقطب جبينه .

ـ لا أظن ذلك، شكراً .

ـ أخائفٌ أنت؟

رماها بنظرةٍ من عينيه الضيقتين وسألها : «ومما أخاف؟» .

فأجابت بنعومة : «من السماح لروح الميلاد بالتغلغل فيك» .

لوى فمه، فيما ومضت عيناه وأجاب : «ربما، وأنتِ، مما تخافين؟» .

زفرت بارتياح، وأنكرت وهي تشعر بالتورد في خديها : «أنا لا أخشى شيئاً» .

فسألها بسخرية : «حقاً؟ شعرت أنك كنت خائفة مني في كوخك» .

تصلبت، قبل أن ترد : «إذاً كنت مخطئاً . فأنا لا أخشاك يا سيد بلاك،

وإنما أحذر منك وحسب، فلقد رأيت التأثير الذي تحدثه، وأعرف من أيّ نوعٍ أنت . ولا نية لي في أن أصبح إحدى ضحاياك» .

ظهر الغضب على ملامحه، وأظلمت عيناه وهو يسألها : «إحدى ضحاياي؟ ماذا تقصدين بحق الجحيم؟» .

ولمّا كانا قد بلغا بلاك بور، توقفت كلير عند المدخل الرئيسي، وأعلنت وقد أشاحت بوجهها عنه : «ها قد وصلت يا سيد بلاك» .

لكنه لم يترجل من السيارة، بل لبث فيها، وهو يتفرس في الوجه الذي بقي يتفاداه . وبعد دقيقةٍ، قال بجفاء :

ـ لست متأكداً عما تتكلمين، لكن إذا كنت تقصدين بيلاً دكلان، فأنا لم أدمر حياتها، بل المخدرات . ولقد أدخلتها إلى عيادة، لكنها تركتها مجدداً، لأنها لم تكن مستعدةً لمحاربة إدمانها، ولعلها لن تنجح في ذلك أبداً . فقد استغُلت في طفولتها، مما أثر عليها لسنوات . وبيلا فتاةٌ مريضةٌ جداً، وما المخدرات إلا سبيلها للتغلب على الذكريات التي لا تستطيع مواجهتها . عليكِ ألا تصدقي كل ما ترويه الصحف يا آنسة سامر، فهي غالباً ما تبالغ، وتنشر الأكاذيب .

ـ ولكن، أكانت مغرمةً بك حقاً؟

وحمل صوتها نبرة فراغ صبر، فأجاب : «لعلها ظنت ذلك، لكن مدمني المخدرات يعيشون في عالمٍ خيالي، ولا يمكن أن تصدقي كل كلمةٍ يتفوهون بها» .

أدارت كلير رأسها، ونظرت إليه بازدراء حارق . ولما التقت عيناهما، استحال لونها أحمر داكناً . فهتف بحدة : «لا تنظري إليّ على هذا النحو . فأنت تجهلين كل شيء عني . ما الذي يجعلك تعتقدين أنك تستطيعين الحكم عليّ؟» .

ـ لم أنبس ببنت شفة، والآن، هل تمانع الترجل من سيارتي؟ فما زال أمامي الكثير من الأعمال، وأنا على عجلةٍ من أمري، حتى ولو لم تكن أنت

www.elromancia.com

كذلك.

لكنه لم يتحرك، بل تعمد أن يسترخي، فأسند ظهره على المقعد، ووجهه ملتفت إليها. وفيما رأسه مرتاحٌ على يدٍ، راح ينقل عينيه عليها، في نظراتٍ بطيئةٍ متوانية. وحرصت كلير على أن تبقى متيقظةً تماماً.

- شعرك يشبه ضياء القمر، كما يعني اسمك بالفرنسية. ألهذا أطلق عليك أبوك هذا الإسم؟ أكان لشعرك هذا اللون حين ولدت؟

فأجابت باختصار وهي تشعر أن خصلات شعرها تضايقها عند العنق: «أظن أن أمي أحبت اسم كلير ليس إلاّ».

وفكّرت في عينيه المتألقتين، وقد اختفت فيهما إرادةٌ تقلق راحة بالها. وما لبثت أن أعلنت: «والآن، هلاّ خرجت من سيارتي إذا سمحت يا سيد بلاك؟».

- في منزل «البحيرة السوداء»، سيارةٌ فيها حاجياتي الخاصة، وهي في الأسطبل المقفل. وأريد أن أنقلها إلى كوخك، وأفرغ محتوياتها في الصباح. فهل لي بمفاتيح الكوخ، إذا سمحت؟».

ترددت كلير أولاً، ثم مدت يدها إلى جيبها على مضض، وسلمت مفاتيح كوخها. ولما تناولها منها، تلامست أناملهما برفق، فاضطرت إلى كبت الرعشة التي سرت في أوصالها. وراحت تقنع نفسها أن بشرته باردةٌ ليس إلا، وأن لمسته لم يكن لها أي تأثير عليها.

وتلألأت السخرية الباردة في عينيه حين قال: «أشكرك وسأفادى، فأتمنى لك ميلاداً مجيداً أيضاً. وأرجو أن تكون عطلتك سعيدةً بقدر عطلتي».

فردت بحدة: «شكراً، وأنا متأكدة من أنني سأكون أكثر سعادةً. ففي الميلاد، كما في غيره، يحصد المرء عادةً ما يزرعه».

ضحك وأجابها: «أتقصدين أنني أستحق قضاء الميلاد وحيداً؟ اسمعي، انتظريني هنا دقيقة، أريد أن أحضر شيئاً وسأعود في الحال».

وقبل أن تتمكن من الكلام، خرج من السيارة. فما كان منها إلا أن راقبته وهو يدخل المقهى القديم. ترى، ماذا يخطط الآن؟ ثم نظرت إلى ساعتها وقد عيل صبرها. يجب عليها أن تعود إلى البيت، فيكفي ما أضاعت من وقتٍ على دنزل بلاك. وفيما كانت غارقةً في أفكارها، عاد وهو يمشي بتمهّل، ثم استقر في المقعد الأمامي مجدداً، فالتفتت إليه كلير بتساؤل. ماذا ذهب ليحضر؟

وبعد ثوانٍ معدودة، رفع ما في يده حتى أخذ يتدلى فوق رأسها. فرفعت وجهها بحركةٍ غريزية، وأبصرت الساق الخضراء، والأوراق الخضراء، وحبات التوت المتلألئة الصلبة. إنه نبات الهدال!

تمتم: «بما أنك تبدين كأحد الوثنيين في طقوسك، فهذا طقس يسعدني المحافظة عليه».

وما إن أتم كلامه، حتى مال نحوها وعانقها عناقاً خاطفاً، لكنه خلّفها ضعيفة، لاهثة ومصعوقة.

لبثت في مكانها صامتةً وتشعر بالدوار، فيما خرج دنزل بلاك من السيارة، من غير أن يضيف كلمةً أخرى.

ومن العجب أن كلير لم تنطلق في الحال وسرعان ما توقفت سيارة أخرى خلفها، وأخذت تحثها على المسير. فأدارت المحرك على غير هدى، وتوجهت نحو الطريق العام، حيث كادت تصطدم بحافلة. ولحسن الحظ، لم يكن السائق مسرعاً، فتمكن من الفرملة قبل أن يصدمها.

وهنا، استجمعت كلير أنفاسها وقد تملكها الرعب. ثم أومأت إلى السائق باعتذار، ومضت إلى بيتها وهي ترتعد.

في الواقع، كانت مسرورةً بمهماتها العديدة هذا المساء، فالعمل أكثر أماناً من التفكير. وكلّما فكّرت، كلما أحسّت برأسها يدور، إذ لم تصدق هذا الشعور الذي ولد فيها لما عانقها. بدا لها وكأنه زلزال، ما زالت تشعر بهزّاته حتى هذه اللحظة.

لكن، بدا أن أحداً لم يلحظ ذلك التغيير فيها، لا سيّما أن عائلتها كانت تستعد للذهاب للمشاركة في إنشاد الترانيم.

وطمأنها والدها: «لقد أحضرنا طعاماً صينياً من المطعم، فلا تقلقي علينا. هل تدبرت مكاناً يسكن فيه السيد بلاك؟».

فنظرت كلير إلى لوسي، التي دافعت عن نفسها ببراءة: «قلت لأبي إنني أظن أنك ذهبت لهذا السبب. وقد عرفت أنك لن تتركي الرجل المسكين في نزلٍ طيلة فترة الميلاد!».

عندئذ، ردت باقتضاب: «نعم، وجدت له مسكناً».

فنظرت إليها لوسي بحماس لم يعجب كلير، وسألتها: «أين؟».

- في منزلٍ جديد، عُرض للإيجار في الأمس. وهو خارج البلدة، وغير بعيد عن «البحيرة السوداء».

عندها، هتفت لوسي بنعومة: «يمكننا أن نساعده على الاستقرار. فلا شك أن رجلاً يعيش وحده بحاجةٍ إلى المساعدة».

- بل لا يحتاج إلى أي مساعدة، وهو قادرٌ على التصرف وحده. أما إن عانى من مشاكل، فلديه من المال ما يمكّنه من حلّها.

ثم حانت من كلير التفاتة إلى ساعة الجدار وقالت: «ستتأخرون».

فأطلق روبن شكوى صارخة: «إنها محقة، هيّا بنا!».

أسرعوا الخطى، على أن يعودوا لاحقاً مع باقي أعضاء الكورس ليتناولوا طعام العشاء، قبل أن يذهبوا إلى الكنيسة عند منتصف الليل. أما في الوقت الحالي، فتستطيع كلير الاسترخاء والاستمتاع بمساءٍ هادىء وهي تعدّ الطعام وتستمع إلى الموسيقى. وبما أنها ستنصت إلى الترانيم لاحقاً في الكنيسة، فقد قررت الاستماع إلى الكونشيرتو الثالث والعشرين لموزارت، وهو المفضل لديها. وأسرعت لتضيف الخضار إلى حمل ضخم، ثم أدخلت المزيج إلى الفرن استعداداً للعشاء، وفي انتظار نضوجه يمكّنها أن تحضّر الفطائر المحشوة، التي خبزت كميةً كبيرة منها، سيلتهمها أعضاء الكورس

بلا شك.

كانت الغرفة المتصلة بالمطبخ باردةً، لا تشملها التدفئة المركزية. لهذا، فهي منعشةٌ صيفاً، جليديةٌ شتاءً. وقد وزّعت فيها طاولاتٌ طويلة، صفت فوقها قوالب حلوى بالكريما، زينت أعلاها بخيوطٍ متعددة الألوان من السكر، وقطع حلوى برتقالية وحمراء وخضراء، فبدت كأنها مجوهراتٌ متلألئة في أوعيةٍ زجاجية.

المنزل بكامله يعبق بروائح الميلاد، من أكواز الصنوبر، ونباتات البهشية واللبلاب التي قطفها والدها وأخواها قبل أيام، فعلقوها حول أطر الصور، وعلى الشرفات، والنوافذ، وزينوها بأشرطةٍ لماعة، وأوراقٍ حمرٍ وذهبية. كما انتشرت رائحة الطعام في أرجاء المنزل، وهو بدوره شهيٌّ وغريبٌ وغنيٌّ، من بلحٍ وجوزٍ، إلى زبيبٍ وأناناس، فأكواب العصير وأطباق اللحم.

وكانوا قد رتبوا البيت استعداداً للميلاد، كعادتهم في كل سنة. فالأشرطة المتدلية في كل غرفة، وأجراس الميلاد تمتد من السقف وتتوزع هنا وهناك، فيما شجرة الميلاد تزيّن غرفة الجلوس قرب النافذة، وتملأ الجوّ بعبق الصنوبر. والشجرة في غاية الجمال، مزيّنة بالكرات الزجاجية، وغيرها من أدوات الزينة.

وتهالكت كلير على كرسيّ بذراعين قبالة النار، وبيدها فنجان قهوةٍ، وراحت تنظر إلى الشجرة بعينين ناعستين، فيما الغرفة غارقةٌ في ظلام خفيف، لا يبدّده إلا نور مصباح صغير. لا بد أن الآخرين سيعودون أدراجهم قريباً، لكنها تعبةٌ الآن، ويتابها ذلك الوهن الجسدي اللذيذ. وسرعان ما تثاءبت، وهي تتمدّد بكسل، مشغولة البال، ولم تمضِ دقائق حتى أغمضت عينيها، وراحت في إغفاءةٍ خفيفة.

وفجأةً، دخل دنزل بلاك إلى الغرفة، وقد انعكس طيفه الأسود المألوف على الجدران، حتى كاد يبتلعها. لم تكن قد أدركت قبلاً أنه بهذا الطول، فقد

بدا لها أن رأسه يلامس السقف، فيما قامته رفيعةٌ كخيط الدخان، تتلوى نحو الأعلى. وإذا بدمها يمسي بارداً، ليستحيل حاراً مجدداً، وعجزت عن التنفس، أو الكلام وشعرت أن سراً غامضاً يمنعها من الحركة.

تطلعت إليه، وهي تناضل لتتحرر، وتنهض. لكنه بادلها النظرات، وابتسامةٌ جافةٌ غريبةٌ على وجهه، وعيناه الرماديتان شاحبتان وكأنهما خضعتا للتنويم المغنطيسي، فيما قوة إرادته تقضي على كل مقاومتها. وشعرت بشفتيها تحترقان وكأنه يقبلها، تبع ذلك إحساسٌ بوهنٍ شديد سيطر عليها. وبدا لها أنه يطفو في أرجاء الغرفة بصمت، ثم دنا منها حتى بات فوقها، فحبست كلير أنفاسها. عندئذٍ، أخذ فمه يقترب من عنقها ببطء، وهي تراقبه بانفعالٍ وضعفٍ، وتتوق إلى لمسته.

وتدفق الدم في شرايينها وأحسّت كأنه يمتص حياتها مع دمها. وما لبثت أن شعرت بالإغماء تدريجاً. فراحت تتنهد بمزيجٍ من الرعب والإثارة، وأغمضت عينيها مجدداً، حتى لفها الظلام تحت جناحه.

وصفق بابٌ في مكانٍ ما، فأجفلت كلير بعنف. أكانت نائمةً طيلة هذا الوقت؟ كان باب غرفة الجلوس مشرعاً، مما سمح للنور أن يتسلل من الرواق إلى الغرفة. وإذا بها ترى دنزل بلاك بغتةً، وهو يقف عند العتبة يراقبها.

ارتجفت كلير. هل حدث ما حدث فعلاً؟ أم كان مجرد حلم؟ ترى، أهي تحلم الآن؟ وهل تحقق منامها؟ أسيطفو في أرجاء الغرفة ثم...؟

وأقبل من خلفه لوسي والصبيّان، وهم يضحكون، وقد علت وجوههم حمرة البرد والإثارة، فيما أبوها وبقية أعضاء الكورس يتجمعون من خلفهم.

وإذا بصوتٍ يصدح: «ميلاد مجيد، كلير!».

وارتفع صوتٌ آخر: «هل أيقظناك؟ يا للأسف!».

وكشّر روبن: «ظننا أنك انتهيت من إعداد الطعام. أيعقل هذا يا كلير؟

إننا نموت جوعا!».

ثم تقدمت لوسي لتدير زر الكهرباء الرئيسي، وهتفت: «تفضلوا جميعاً».

وغمر الغرفة نورٌ مشرق، بهر كلير وهي تنهض من كرسيّها. وجلس أعضاء الكورس في مقاعدهم وهم يضحكون ويتحدثون، وكلٌّ منهم يحاول الاقتراب من النار، في حين انشغل بعضهم بتحية كلير وتهنئتها بالعيد.

ومع أنها لم تنظر إلى دنزل بلاك، إلا إنها شعرت به يراقبها. ماذا يفعل هنا بحق الله؟ وكيف تمكّن من الانضمام إليهم والاحتيال ليدعونه؟

وهنا، تكلمت لوسي، وهي تنظر إلى دنزل وعيناها تتألقان إشراقاً، وعلى شفتيها قطراتٌ ندية.

- لقد سمعنا دنزل ونحن نغني فيما كان يسير في الشارع، فتوقف لينصت إلينا، وبقي مدة طويلة. وبالفعل، كان أفضل مستمعينا.

دق ناقوس الخطر في ذهن كلير، في حين تابعت لوسي: «دعاه أبي لتناول العشاء معنا. والطعام وفير، أليس كذلك؟».

فأجابت كلير بتيبس، وقد اقشعر بدنها وهي تشاهد أختها تبتسم له: «طبعاً».

منذ تعرف دنزل بلاك إلى لوسي، وكلير تخشى هذه اللحظة. ولم تشأ أن تبعد لوسي عنه لأميالٍ فحسب، بل جهدت لفصلهما عن بعضهما البعض كلياً. لكنها أدركت الآن، أن أختها لن تستمع إلى تحذيراتها بسهولة.

وهنا، تقدم والدها: «أتحتاجين لمساعدةٍ؟ أيها الصبيّان، تقدّما وساعدا شقيقتكما. لوسي، احرصي على راحة ضيوفنا، وقدّمي لهم الشراب».

وأعلنت كلير وهي تخرج من المطبخ: «لقد أعددت الشراب، وسيحضره روبن في الحال».

- ممم... يبدو لذيذاً... ماذا وضعت فيه؟ هل لي بكوب؟

- إنه محضّر أساساً من عصير الفاكهة، إضافةً إلى التوابل، لكنني

أضفت إليه أيضاً شراب الكرز. يمكنك الحصول على كوبٍ طبعاً، فلن يضرك إن لم تكثر منه.

وتقدم جايمي بسلتين مليئتين بالخبز الفرنسي، ثم سألها مقلداً أخاه: «هل لي بكوب أيضاً؟».

فأجابت كلير: «يمكنك أن تشرب».

وشرعت تراقب أباها، وهو يلبس القفازات، ويخرج الطعام من الفرن بعناية. ثم سألته: «هل الصينية ثقيلةٌ عليك يا أبي؟».

فطمأنها: «بل أنا بخير».

كانت قد أعدت المائدة مسبقاً، ووضعت السكاكين والأطباق والمناديل الورقية. ألقت حولها نظرةً أخيرة لترى ماذا ينقصُ بعد، فأبصرت شخصاً يدخل الغرفة ببطء، مشرق العينين وعلى وجهه سحرٌ متملقٌ.

ـ مرحباً كلير، هل يمكنني مساعدتك؟

بدا على ملامحها أنها غير مصدقة: «هال! لم ألاحظ أنك مع الكورس، هل عدت إلى البلدة لقضاء الميلاد؟».

منذ ثلاث سنوات، وقعت كلير في حبّ هال ستيفنز، وآمنت أنه يحبها أيضاً، إلى أن تزوج فجأة من امرأةٍ أخرى، وانتقل بسرعةٍ من البلدة، ليعيش في يورك مع زوجته الجديدة.

وكتب لكلير رسالةً يشرح فيها الوضع، لكنه بعث بها ليلة زواجه المفاجيء فكان أن سمعت بالخبر من جارٍ، تعاطف معها بشدة، إلا أنه وفي الوقت نفسه، غمره الفضول ليرى تعابير وجه كلير المصدومة.

ولم تتسلم الرسالة إلا بعد مرور يومين، وشرح فيها أنه تزوج المرأة الآخرى لأنها تنتظر منه مولوداً.

وصعب على كلير أن تتذكّر كيف شعرت في بادىء الأمر. إنما تملكها إحساس بالكرب وعدم التصديق. وعاشت لأشهرٍ كإنسان آلي، بالكاد يدرك ما يفعله أو يقوله، وإنما يكتفي بالعيش. ومع الوقت، تغلبت على

المشكلة، لكنها باتت حذرةً جداً، على قدرٍ من التشاؤم وشديدةً الاحتراس في ما يتعلق بالرجال.

ولم تدرك أنها نفدت بجلدها إلا لاحقاً، حين استوعبت رسالة هال المثيرة للشفقة. وقد كتب فيها أنه لا يحب زوجته الجديدة، بل ربطته بها علاقة قصيرة حين قضت عطلتها في غرينهاوي. في تلك الفترة، كانت كلير مشغولةً جداً، فشعر بالوحدة، ثم أحس أنه وقع في فخٍ لما حملت ستيفاني منه، لكن كلير ما زالت المرأة التي يحب.

ولاحقاً، شعرت كلير بالأسف على زوجته، ما إن بدأت تفكّر بصفاءٍ مجدداً. فأي نوع من الزواج هذا، حين يتحدث هال بهذه الطريقة عن زوجته، ويكن لها هذه المشاعر؟ ولكرهت كلير الأمر لو عرفت أن رجلاً ما يتحدث عنها على هذا النحو! بعدئذٍ، سمعت كلير أن ستيفاني تشارف الثلاثين من العمر، ولا تتمتع بقدرٍ كبير من الجمال، ولكن أهلها أغنياء، وشبكة أعمالهم واسعةٌ مزدهرةٌ. وبعد أن تزوج هال من ابنتهم، شغل مركزاً مهماً كمدير مبيعات، وبلغ ربحه حداً لا بأس به.

رد عليها بابتسامة: «كنت أغني مع أعضاء الكورس، وأصرّ والدك على مجيئي».

لطالما دللت والدة هال ابنها، فظن أنه يستطيع استرضاء أي امرأة، ولعله نجح مع معظم النساء.

أما كلير، فلا. نظرت إليه ببرودة وفي عينيها الزرقاوين سخريةٌ واضحة. هذه المرة، لن تقع أسيرة سحره، لن تقع ثانيةً أبداً. فهي تعرفه جيداً.

ـ قلت له إنك لن ترغبي في رؤيتي مجدداً. لكنه أكّد أنك نسيت الأمر وسامحتني على ما مضى، وأنه الميلاد على كل حال...

وفاضت عيناه الزرقاوان تفاؤلاً. كان أشقر، ناعم البشرة، وعلى وجهه سماتٌ طفولية، وسحرٌ فائض تعوّد أن يتكل عليه. مما دفعها إلى التساؤل

عما عساه يفعل حين تمر عليه السنين، ويفقد ذلك السحر الصبياني الذي يتميز به.

ـ هل عدتَ لقضاء الميلاد في البلدة مع أهلك؟

وكانت تعرف أن أباه وأمه أمضيا الميلاد المتصرم مع زوجته وطفلهما. وأبوه يملك متجر خردواتٍ في البلدة، وقد التقته في أحد أيام الربيع الفائت، فراح يتحدث بلا هوادة عن حفيده ونجاح ابنه، متجاهلاً ما اقترفه ولده في حقها. إلاّ أن زوجته لطالما بدت محرجة عند لقائها بكلير.

ـ هذا صحيح. وحين مررت «بتاون هول» ورأيت الكورس يغني، لم أستطع مقاومة الرغبة في الانضمام إليهم. وقد استعدت العديد من الذكريات الجميلة.

ثم أخفض بصره وتنهد، قبل أن يردف: «كلير... من الرائع أن أراك. أنت أجمل مما أتذكر، وأنا لم أنسكِ مطلقاً، وأنت أيضاً، أليس كذلك؟».

فأجابت بحدة: «في الواقع، لم أنسَ أنك متزوجٌ ولك طفلٌ. فعد إلى الباقين يا هال، واتركني وحدي».

أمسكها بكتفيها، وقد علت الإثارة وجهه: «سأفعل بعد دقيقة، يا كلير. ولكن امنحيني قبلةً واحدةً أولاً».

كانت على وشك أن تدفعه بعيداً عنها، حين أمسك به شخصٌ آخر، ورمى به إلى أقصى الغرفة.

ـ لقد سمعتها! أخرج من هنا!

فعجزت كلير عن التعبير. وما كان منها إلا أن حدقت في دنزل ذاهلة، وقد اتسعت عيناها الزرقاوان ارتياعاً.

أما هال، فاصطدم بالجدار عند الباب محدثاً صوتاً مكتوماً. وعلا الغضب وجهه الوسيم، ثم تطلع إلى دنزل وهو يشد قبضتيه استعداداً للعراك.

فنصحه دنزل بنعومة: «لا تفكّر في ذلك حتى!».

توقف هال فجأةً، وكأنه يعيد التفكير في الأمر لا سيما بعد أن سمع نبرة دنزل الآمرة. بدا متردداً، قبل أن يحملق فيه، ويدمدم: «لا تستحق العناء».

ثم اختفى.

أما دنزل، فنظر إلى كلير وقال متشدقاً: «أهذا هو الشخص الذي وضعك في مخزنٍ بارد؟ كنت أعرف أن الأمر يتعلق برجل. فلا بد من وجود سببٍ لهذه الطبقة الجليدية التي أصطدم بها كلّما تكلمت مع امرأةٍ جميلةٍ مثلك».

فأجابت كلير بحدة: «ولم تفكّر طبعاً في أن حدتي تعود لتصرفاتك! إذا لم يغمى عليّ في الدقيقة التي رأيتك فيها، فهذا لا يعني أني أشكو من عيبٍ».

بدا متسلياً: «شيءٌ من هذا القبيل، عرفت أنك مررت بتجربةٍ فاشلة ذات مرة، لكن عليّ الإعتراف بأن ذوقك قد خيّب أملي. ماذا أعجبك في هذا الرجل بحق السماء؟».

فأجابت وصوتها يقطر جليداً: «أما أنا، فكنت أتساءل ما الذي يعجب النساء فيك».

وما لبثت أن أخرجت وعاءً كبيراً من القشدة، وناولته إياه قائلة: «هلاّ تكرّمت وسلمت هذا للباقين؟».

لكنه لم يطعها، بل نظر إليها من خلال أهدابٍ كسولة، وابتسم، ثم أضاف: «ألا أتلقى شكراً لأنني وفرت عليك عناء صفعة؟».

فتمتمت بفتور: «شكراً».

وسرعان ما قهقه: «في يومٍ ما عليّ أن أكتشف إن كان الدم يسري في شرايينك».

وابتعد حاملاً الوعاء، فيما تسمرت كلير في مكانها وهي تحدق فيه، وجسدها يرتعش، وقد تذكرت الحلم الغريب، إضافةً إلى الرعب والانفعال اللّذين تملكاها.

***

٤ ـ ابتعد عن أختي!

في فترة ما بعد رأس السنة، مرّ عمل كلير بفترة ركود، فقلةٌ من الناس يفكرون في تغيير بيوتهم في الشتاء. وكان هذا موضوع حديثها مع جوني برتشارد، المحامي الذي تولى معظم مهمات هيلين في فترة نقاهتها الطويلة.

بدا جوني متعاطفاً، ووافق: «أنا أتلقى قسماً كبيراً من دخلي من السماسرة أمثالك! لكنني محظوظ بالحصول على وصايا أعتمد عليها، إذ يميل عددٌ كبير من الناس إلى الموت في الشتاء، وكمنفّذ لوصاياهم، أتلقى أجراً لا بأس به».

كان جوني رجلاً لطيفاً، في أوائل الثلاثينات، أشقر وضعيفاً. وقد، فشل زواجه بعد سنوات، ولذا، عاش مع والدته في شقةٍ على الساحل. وتقول الإشاعات المحلية إنّ أمه تسببت بالطلاق، لكنها لطالما كانت لطيفةً مع كلير منذ عرفتها قبل أعوام انقضت.

وتابع جوني: «قالت لي أمي أمس إنه علينا أن ندعوك على العشاء قريباً. فمتى يمكنك المجيء؟ هذا الأسبوع؟».

ترددت كلير لبرهة، ثم ابتسمت له: «حسناً، ما رأيك في يوم الأربعاء؟».

رحبت بها السيدة برتشارد، وأعدت لها طعاماً خاصاً، ثم أصرت على أن يعزف لهما جوني على البيانو بعد العشاء. استمتعت كلير بتلك السهرة، وما لبثت أن دعت جوني بدورها إلى منزلها بعد أسبوع. ولاحقاً، قالت لها

لوسي بتكشيرة: «إنه هادىء، جداً! ماذا ترين فيه؟ أظن أنه جديرٌ بفتاةٍ أخرى، نظراً لأنه يتلقى مدخولاً كبيراً. لكن، صدقاً كلير، إنه يخلو من الإثارة تماماً!».

لكن كلير لم تكلف نفسها عناء المجادلة، فهي تحب جوني. ومع أنه ليس الحبّ الذي يدفعها إلى الارتباط به، إلا أن لوسي لا شأن لها بذلك.

وخلال الأسابيع الأولى من السنة الجديدة، تساقط الثلج بشدّةٍ في البلدة. فتكدس على الأرصفة، واستحالت الأشجار نافوراتٍ من الكريستال، فيما اتخذ البحر شكلاً شاحباً، غاضباً، عاكساً السماء الباردة.

وفي صباح أحد أيام الأسبوع الباردة، تمتمت لوسي على مائدة الإفطار: «أرجو أن يكون المكان الذي استأجره دنزل بلاك دافئاً».

وسرعان ما التفتت إلى كلير بعينيها المشرقتين المتسائلتين: «وأين يقع بالمناسبة؟».

ـ لقد نسيت تماماً.

ـ كلير! أنت لا تنسين أبداً الملكيات التي تهتمين بأمرها. أتعرفين؟ لا شك أنه يشعر بالوحدة في هذه البلدة الغريبة، لا سيما بعد أن عاش في هوليوود.

وما لبثت أن تنهدت بحسد وأضافت: «تصوري كل تلك الحفلات، والنجوم المشهورين! لا بد أن الأمر رائع!».

فكّرت كلير كم ستكره العيش في هوليوود، فحياة البلدة تناسبها أكثر ثم أجابت بجفاء: «ربما لا. ولعله لم يأتِ إلى هنا إلاّ أملاً في تلك الوحدة. على كل حال، لَم يهمك أمر رجلٍ آخر وأنت مخطوبةٌ؟».

فرّدت بحدة، وقد احمرّ خدّاها: «ألا يمكن أن يكون لي أصدقاءٌ آخرون، وإن كنت مخطوبة؟».

ـ لكن، ليس رجالاً كدنزل بلاك يا لوسي! فالعبارة التي تصفه بحق هي: الرجاء التعامل معه بحذر.

قهقهت لوسي وقالت: «كنت أعتقد أنك غير معجبة به، لكن يبدو أنك تجدينه ساحراً جداً!».

ولما عبست كلير، سارعت لوسي بالنهوض عن المائدة وهي تقول: «يا إلهي، أنظري إلى الساعة... يجدر بي أن أسرع، أراك الليلة. قد أتأخر، إذ لديّ اجتماع موظفين بعد دوام المدرسة، وذلك لمناقشة مهرجان الربيع الذي نخطط له».

راحت كلير تراقبها وهي ترحل، والقلق يعلو وجهها، فقد بات اهتمام لوسي بدنزل بلاك مزعجاً. ولن يطول الأمر حتى تبلغ الإشاعات مسامع مايك، إن تورطت معه. فهذه بلدةٌ صغيرة، ولا مجال لإخفاء الأسرار.

وبعد فترة، علمت أنّ البنائين باشروا العمل أخيراً في «البحيرة السوداء». وكان هذا المنزل الأكثر شهرةً، لذا، تحمس الجميع لفكرة أن يعود للحياة بعد أن بقي خالياً فترة طويلة.

وبعد أسبوع، وفيما كانت كلير تقفل الوكالة في المساء، خففت سيارةٌ من سرعتها إلى جانبها، وإذا بدنزل بلاك ينادي: «سأوصلك إلى البيت».

هزت كلير رأسها نفياً: «كلا، شكراً سأسير فالمنزل ليس بعيداً».

فأمرها وهو يفتح الباب الأمامي: «اصعدي!».

وإذا بها ترى على الرصيف الآخر أناساً تعرفهم يصغون إلى حوارهما. وإن أكملت مسيرها، فيما دنزل يتبعها بسيارته، ويجادلها، فستتضارب التكهنات وتتنوع.

وأدركت بامتعاض أنها لا تملك خياراً. فعلا التورد وجنتيها، وصعدت إلى السيارة، قبل أن ينطلق بها دنزل.

ومن غير أن تنظر إليه، همست بعنف: «إيّاك أن تفعل هذا مجدداً».

فسألها بكل براءة: «أفعل ماذا؟ أتبرع بإيصالك إلى منزلك؟ وما العيب في هذا؟».

التفتت إليه بحدة وأجابت: «كان عليك أن تنطلق ما إن رفضت، بدل

أن تزعجني أمام كل هؤلاء الناس!».

ـ ولِمَ تهتمين بآرائهم؟

ـ إنها بلدةٌ صغيرة، ولا أحب أن أكون موضع حديث.

لوى فمه بسخرية وقال: «ستعتادين على هذا إن كنت مضطرةً، فعلى المرء أن يضع قناعاً أو اثنين».

رمقته بنظرة جانبية وسألته: «وكم قناعٍ لبستَ؟».

فما كان منه إلا أنْ ضحك وقال: «توقفت عن العد منذ زمنٍ طويل».

وفجأةً، أدركت أنهما لا يتوجهان إلى منزلها، فعدّلت جلستها، وشعرت بكل عضلةٍ في جسدها تتصلب.

ـ إلى أين تذهب؟

ـ فكرت في أن نتناول العشاء في مكانٍ ما في البلدة. وقد اكتشفت مطعماً صغيراً هادئاً، يديره طباخٌ ممتازٌ فعلاً.

ـ لكن لدي موعداً، فأرجوك، خذني إلى المنزل.

وراحت تكبت الرعب في صوتها، وهي تحاول أن تبدو باردةً وبعيدةً.

والتفت إليها: «موعد؟ مع رجل؟».

ـ نعم، مع أن لا شأن لك بهذا. فهلاّ عدتَ أدراجك إذا سمحتَ، وأوصلتني إلى المنزل؟ لا أريد أن أتأخر».

تمهل في قيادته وقد أشاح بوجهه الذي بات قاسياً، غامض الملامح: «كان لدي انطباعٌ أن لا رجل في حياتك».

فأجابت بارتياحٍ فظ لم تستطع أن تشرحه حتى لنفسها: «إذاً، كنت مخطئاً».

ـ وما اسمه؟

ولمّا لم تجب، أدار رأسه مجدداً نحوها، ونظر إليها بحدةٍ وعيناه تلمعان: «سألتك عن اسمه».

ـ لا شأن لك بحياتي الخاصة.

- ليس الشاب الذي كان يضايقك في حفلة ليلة الميلاد؟

فردّت بإجفال: «هال؟ كلا، طبعاً! هال لا يعيش هنا، بل عاد إلى البلدة لقضاء الميلاد وحسب».

عندها، تمتم بهدوء: «جيد، وكما تعلمين، لقد تفاجأت بما سمعته مصادفةً. لم أظنك من النوع الذي يتورط مع رجلٍ متزوج».

فردت بحدة وقد تورد خداها: «لم يكن متزوجاً حين عرفته».

علق بهدوء: «فهمت. أتزوج بعد أن قطعت علاقتك به؟ أم من منكما قطع العلاقة؟ أنت أو هو؟».

وأثار فضوله انزعاجها، وهي التي لم تكن تريده أن يهتم بحياتها، فما بالك بحياتها العاطفية؟

- أرجوك، هلاّ توقفت عن طرح هذه الأسئلة وأوصلتني إلى المنزل؟

هزّ كتفيه بلا مبالاة، وانعطف بالسيارة، وتوجّه إلى منزلها مباشرةً من غير عجلةٍ. ولمّا توقف أمام البيت، فكّت كلير حزام الأمان، لكن يده قبضت عليها في هذه اللحظة وأمسكتها من رسغها.

- ماذا عن الرجل الذي تواعدينه الآن؟ منذ متى تعرفينه؟ هل العلاقة جدية؟

وردّت على نظرته المتسائلة ببرودةٍ: «كيف تظن أنك تملك الحق في سؤالي؟ وماذا لو كانت جدية؟ ما دخلك بهذا؟».

فأصر: «أهي جدية؟».

وكذبت: «نعم».

وإذا بها ترى عينيه تومضان، فيما حاجباه يرتفعان فوقهما: «لم لا تخبريني عن اسمه؟ أهو متزوجٌ أيضاً؟».

فأجابت بحدة: «كلا، واسمه جوني. والآن هلاّ تركتني؟».

ظنت لبرهةٍ أنه لن يفعل، فأحست بأعصابها تتشنج تحت بشرتها منذرةً بالخطر. وقادت أعينهما معركةً صامتة، سلاحها النار التي اشتعلت بينهما.

وفاق التوتر كل احتمال، وأحست بأنها على وشك الصراخ، لكنه أطلق سراحها أخيراً، فسارعت بالترجل من السيارة، ومضت من غير أن تلتفت وراءها.

وكان من المهم بالنسبة لها ألا تلتفت وراءها، لئلا يعتقد أنه ترك فيها أثراً ما. ولم تكن تكذب عليه، فهي مرتبطةٌ بموعدٍ مع جوني بريتشارد، وسيصحبها إلى مطعم يونانيّ جديد فتح أبوابه في البلدة هذا الشتاء. وفيما هي تستعد، أطلقت كلير تنهيدةً، فجوني رجلٌ لطيف. لكنها لا تستطيع التفكير فيه كما تفكّر في دنزل بلاك، رغم أن هذا الأخير لا يمت إلى اللطف بصلة؟

في الواقع، لم تشأ أن تعيره أي اهتمام. وحاولت أن تتقيّد بذلك أثناء النهار، لكنه غالباً ما يتسلل إلى أحلامها بإزعاج. وظلّ ذلك الحلم الغريب الذي نُسجت حبائله ليلة الميلاد يراودها مراراً وتكراراً خلال هذا الشتاء الطويل والبارد، رغم أنها لم تفهم معناه حقيقةً.

وبدأت تخشى من الخلود إلى النوم.

ولم تلتقِ دنزل بلاك لأسابيع، لكنها أحياناً تلاحظ حركةً ناشطة وهي تمرّ «بالبحيرة السوداء»، من إسقالات حول السقف، إلى عرباتٍ مركونة في الفناء، وكومة من مواد البناء موزعة خارج المنزل، إضافةً إلى رجال، في أيديهم أكوابٌ من الشاي، يتأملون الطقس الذي أضحى معتدلاً هذا الأسبوع، بعدما ذاب الثلج ليترك المنطقة مغمورة بالمياه.

وخلال هذه الأسابيع، كانت نادراً ما تجد لوسي في المنزل. فقد حتم عليها المهرجان العديد من التمارين بعد المدرسة والقليل من وقت الفراغ. لكن كلير فكرت بارتياح، أنها، على الأقل، ستنسى دنزل بلاك. فهي لا تأتي على ذكره أبداً الآن. وعدا عن ذلك، لم تكن تتكلم عن أي شيء آخر، إذ كفّت عن قراءة رسائل مايك أثناء الفطور، أو التحدث عن مشاريعها للزواج، المقرر قرابة عيد الفصح. وحين اقترحت كلير أن تتخذا تدابير

جدية، انفعلت لوسي ورفضت مناقشة الأمر.

حتى أن والدها لاحظ هدوء لوسي الشديد وانطوائها على نفسها، وتمتم، وهو يعبس بقلق: «إنها شاحبةٌ أيضاً. هل تظنين أنها تعمل بجدّ؟ إنها تمضي ساعاتٍ إضافيةً كثيرةً جداً من أجل هذا المهرجان».

فوافقت كلير: «لعل هذا هو ما في الأمر. سأتكلم معها».

وفي صباح اليوم التالي، وفيما هم على مائدة الفطور، رفع روبن نظره عن المجلة التي يقرأها، وهتف بحماس: «اسمعوا! يقال هنا إن دنزل سيصور فيلماً في انكلترا لاحقاً في هذه السنة، مما يفسّر سكنه هنا!».

فسأل أبوه: «أيتحدثون عن موضوع الفيلم».

رد روبن: «إنها روايةٌ لفردٍ من عائلة برونتي، لم أسمع بها من قبل، وتدعى: «أجير القصر المميت».

ـ هل تعرفينها يا لوسي؟

ـ نعم، لقد كتبتها آن، وهي الأخت الثالثة، وما زالت على قيد الحياة. وتدور أحداث الرواية حول امرأةٍ متزوجة تهرب من زوجها الثمل.

ولم تكلف لوسي نفسها عناء إشاحة نظرها عن الرسالة التي تقرأها. فارتاحت كلير وهي ترى أنها فقدت كل اهتمامها في دنزل بلاك، وأنها استعادت القليل من اللون هذا الصباح، فيما اكتسب خدّاها هذا الاحمرار الصحي. ومن يدري؟ لعله ما من داعي للقلق عليها.

وبعد عشر دقائق، وفيما كانوا كلهم يستعدون للرحيل، ذكّرتها لوسي: «سآخذ سيارتي إلى الكاراج. فهل يمكنك أن تتبعيني إلى هناك، ثم تصحبيني إلى المدرسة؟».

ـ حسناً. ولكني سأوصل روبن وجايمي أولاً ثم أراك في الكاراج.

وستنتهز الفرصة التي انتظرتها كي تتكلم مع لوسي. وزاد ذلك التصميم فيها حين وصلت إلى الكاراج، ورأت أن الاحمرار على وجه لوسي قد اختفى ليترك مكانه للشحوب مجدداً.

لكن ما إن فتحت كلير فمها حتى تكهنت لوسي الموضوع، وهتفت: «أنا بخير تماماً، وليس بي من سوءٍ. فكفي عن انتقادي».

فتفاجأت كلير برد فعلها، ثم قالت وهي تخفف عنها: «أنا لا أنتقدك يا لوسي. ولكنني وأبي قلقان عليك. فأنت تجهدين نفسك بالعمل، وقد ظهرت عليك عوارض المرض. تذكري أن زواجك ليس ببعيد».

التفتت لوسي إليها وهي تكاد تصرخ، فيما احتد وجهها وارتسمت العدائية في عينيها المتألقتين.

ـ أنا بخير، بخير تماماً. فدعيني وشأني!

كانت كلير من الصدمة بحيث قادت بصمتٍ حتى بلغت المدرسة الابتدائية حيث تعلّم لوسي. وما لبثت أن توقفت، فخرجت لوسي من السيارة، وصفقت الباب ومضت من غير سلام أو شكر.

ما بالها بحق السماء؟ وأوشكت كلير على الانطلاق حين تقدمت المديرة وحيّتها بحرارة.

ـ كيف حالك يا كلير؟ تبدين شاحبةً قليلاً، كحال لوسي مؤخراً. لكنها تعمل بجدٍّ استعداداً للمهرجان. أليس من المثير أن تتمكن من الحصول على مساعدة دنزل بلاك؟ فكرمٌ منه أن يوفر لنا وقته، لا سيما أنه رجل مشهور!

وأحست كلير بنفسها تتخدّر من الصدمة، لكنها تصنعت إجابةً مهذبة، قبل أن تبتعد بالسيارة بتمهل.

إذاً، هذا هو السبب. لا عجب أنّ لوسي باتت شاحبةً ومتوترة الأعصاب، فهذا مصير نسائه. وتعرفت كلير على عوارض مرض هيلين نفسها، إضافةً إلى النجمة التي مثلت في فيلمه الأخير. كما فكّرت في وجه هيلين يوم أغمي عليها في الشارع، من الشحوب وخطوط التعب، إلى سواد العينين والظلال حولهما.

وهذا الصباح، حين تكلّم روبن عن الإشاعة التي تدور حول فيلم

دنزل الجديد، كيف لم تشك في تصرفات لوسي الفظة، ولا مبالاتها الظاهرة بعد أن كانت أسيرة سحر كل ما يتعلق به؟

وتذكرت كلير أن لوسي توردت خجلاً، رغم أنها لم ترفع رأسها. فقد لاحظت اللون على خدّيها، ولكن بلغ بها الغباء حدّاً ظنت معه أنها أفضل حالاً. وعليها أن تلعن نفسها لأنها لم ترَ الحقيقة.

وبدأت تجمع تدريجاً قطع الأحجية الصغيرة، فأختها تقابل دنزل بلاك سراً في الأمسيات التي تتظاهر فيها بالعمل في المدرسة حتى ساعةٍ متأخرة. وهي لا تشك في أن لوسي كانت تعمل لساعةٍ أو ما يزيد، لكنها كانت لا تلبث أن تتسلل مع دنزل بلاك.

وعضت كلير على شفتها السفلى. وفكّرت والشرر يتطاير من عينيها: «اللعنة عليه!».

لَمَ لا يتركها وشأنها؟ فهي ما زالت صغيرة، ولا تتمتع بخبرةٍ حقيقية في الحياة خارج هذا المكان المنعزل المسالم.

ولم تكن كلير مشغولةً هذا الصباح، فأمضت جزءاً كبيراً من وقتها وهي تحدّق في الفراغ، مكتئبة. ماذا عليها أن تفعل؟ لا يمكن أن تدع لوسي تحطم حياتها. فقد تفسخ خطوبتها، وتتخلى عن عملها، ولكن ماذا تفعل حين يملّ منها دنزل بلاك، كما توقعت كلير أن يفعل، ماذا قد يحدث للوسي، حين تنتهي العلاقة، فتواجه الواقع مجدداً، ومعه كل تلك العواقب الوخيمة لعملها؟

وفكّرت كلير بمرارة: «لن يفعل ذلك بأختي! لن أكتفي بمراقبتها وهي تدمر حياتها. عليّ أن أوقفها عند حدّها، لكن كيف؟».

وعند الساعة الواحدة، خرجت لتناول طعام الغداء. وفي طريقها إلى مطعمها المفضّل، رأت دنزل يسرع الخطى على الرصيف الثاني، ومعطفه الأسود الطويل تتلاعب به الريح، فأحست بقلبها يكاد يتوقف عن الخفقان. سبق لها أن لمحته بضع مرات خلال الأسابيع الماضية من بعيد، وفي كل مرة

ينتابها هذا الأحساس المقلق الذي يقارب الرعب. لكن إحساساً آخر تغلغل فيها بقوة، رغم أنها رفضت أن تواجهه، أو حتى أن تقرّ بوجوده.

وخفف دنزل من سرعته ثم التفت ليعبر الشارع، فما كان من كلير إلا أن تسللت إلى المتجر الأقرب لتختبىء فيه.

فسألتها المرأة خلف المنضدة: «هل لي بمساعدتك؟».

نظرت إليها كلير بارتباك وهي لا تعرف نوع البضاعة التي يبيعها المحل، واضطرت إلى إجالة النظر حولها، قبل أن تجيب: «آه، أود ثلاث حباتٍ من البرتقال إذا سمحتِ».

وما لبثت أن تركت المتجر بحذر، وهي تختلس النظر من جانبٍ إلى آخر. لكنها لم تقع على أي أثرٍ لدنزل بلاك. وبدلاً منه، وقعت على هيلين، وهي تبدو سمراء مشرقة.

حيّتها هيلين بابتسامة: «مرحباً كلير، كيف حالك؟»،

فأجابتها بصوتٍ أجش، وهي ما زالت تحاذر من ظهور دنزل. ثم لاحظت مظهر هيلين وعلّقت: «تبدين رائعة. أعدتِ لتوك من مايوركا؟».

ـ نعم، منذ يومين. لقد عدت وبول لنعيد افتتاح الفندق في موسم الربيع.

وعلا احمرارٌ طفيفٌ وجهها الأسمر، ثم قالت على عجلٍ وبقدرٍ من الخجل: «ستتزوج مجدداً يا كلير».

ولم تكن تلك مفاجأة بالنسبة إلى كلير، فاهتمام بول بهيلين، واصراره على أن تسافر معه إلى مايوركا، أوضحا للجميع أنه ما زال يحبها.

ـ هذا رائع هيلين! لا عجب أنك تبدين بهذه السعادة، بالمقارنة مع حالك قبل الميلاد ومرضك حينها. أما الآن، فأنت امرأةٌ مختلفة!

ـ مرضي هو ما جمعنا مجدداً. أتعرفين؟ إن لم تتصلي به حينها، لما عدنا إلى بعضنا مجدداً.

فاحتجت كلير: «بل أنا متأكدة من أنكما كنتما ستجتمعان عاجلاً أم

آجلاً».

- لست أدري. فكلانا عنيدٌ، ومتكبرٌ جداً. وأنا أدين لك يا كلير! ستأتين إلى زفافنا، أليس كذلك؟ سيكون حفلاً صغيراً، خلال شهرٍ تقريباً. وهو عرسٌ بسيطٌ بلا هرج ومرج، يضم العائلة وبعض الأصدقاء، وسيقام في الفندق.

- أود ذلك. وأشكرك على دعوتك.

وبعد أن أخذت كلير نفساً، اختلست نظرة سريعةً على طول «هاي ستريت»، لتتأكد من أن دنزل بلاك غير قريبٍ. ثم سألت بلا مبالاة: «بالمناسبة، أما زال دنزل بلاك زبونك؟».

فتبدل وجه هيلين، وارتسمت عليه تقطيبة، قبل أن تجيب: «كلا. جوني برتشارد يتولى أعماله، ألا تذكرين؟ لماذا؟».

- لقد استأجر منا كوخاً، بانتظار انتهاء الأعمال في «البحيرة السوداء». وكنت أتساءل إذا عدتِ إلى تمثيله، بعدما تحسنت حالك الآن؟

فأجابت هيلين بجفاء: «كلاً».

وقررت كلير أن تجازف، وتكون صادقةً معها: «هيلين، أنا قلقةٌ على لوسي... لقد اكتشفت لتوي أنها تقابله، سراً!».

فنظرت إليها هيلين بحدةٍ، وقد اتسعت عيناها خوفاً: «لوسي؟ ولكن، أليست مخطوبة؟».

- نعم، إلى شابٍ لطيف جداً، يسكن في أفريقيا في الوقت الحالي. وهي لم تره منذ تسعة أشهر، لذا فهي تشعر بالملل والوحدة. ومنذ أن تعرّفت إلى دنزل بلاك، وهي أسيرة سحره.

فعضت هيلين على شفتيها: «إذاً، أنت محقة في قلقك عليها. فهو يثير المشاكل للنساء».

ولما ازداد احمرارها، نظرت إلى كلير بتكشيرة، وأضافت: «عليّ أن أعترف أنني فقدت عقلي بسببه. فقد كان الحزن على بول يتملكني عندما

التقيته. ولم أظن أن شعوري قد يزداد سوءاً، لكنني كنت مخطئة. وبدأت أواعد دنزل، حتى تعلقت به لدرجة الهوس. وكان محط تفكيري كله، فإن لم أره، أبيت حزينة، وإن رأيته، يسيطر عليّ الانفعال».

بدت كلير شاحبة ومنزعجة، وتمتمت: «تلك هي حال لوسي مؤخراً. كنت أظنها ترهق نفسها في العمل، إذ توقفت عن الكلام، إلاّ عندما تثور غضباً لتفاهاتٍ. وهي بالكاد تأكل، وتعاني دواراً معظم الوقت، كما أنها تبدو كالأشباح».

فعبست هيلين: «يا للمسكينة لوسي. أنا آسفةٌ لأجلها. وأنا أعرف شعورها، لأنني عشته. يا إلهي كم شعرت بالغباء ما إن تغلبت على إحساسي هذا! وأنا لا أفهم كيف أوصلت نفسي إلى تلك الحالة من أجل هذا الرجل».

فأجابت كلير: «أظنك كنت، كما قلت، سريعة التأثر، بسبب بول».

وأومأت هيلين: «نعم. لقد التقيت بدنزل، وكان لطيفاً ومتفهماً».

ولما لاحظت السخرية على ملامح كلير، توقفت عن الكلام، ثم عادت وأضافت: «لا، كان على هذه الصورة حقاً! بدا مسانداً ومتعاطفاً جداً. أما أنا، فكنت أبحث عن شيء، أي شيء، ليمنعني من التفكير في بول. لذا تعلقت بدنزل بلاك. أظنهم يسمون الحالة «تحويل»، فأنت تحولين شعورك من رجلٍ إلى آخر حاول أن يساعدك على تخطي الأول».

ثم ضحكت بحدة، وتابعت: «لكن ذلك لا يساعد أيضاً. وبطريقةٍ ما، يزيد الطين بلةً، فقد توقفت عن الأكل والنوم، ولم أستطع التفكير إلا فيه. ولا عجب أنني أصبت بانهيار عصبي في النهاية. ولكن، ما إن عدت إلى بول، حتى أدركت أن علاقتي بدنزل كلّها هراء ليس إلا. فلم أكن مرةً مغرمةً به، وهو، بكل بساطة، كان يتسلى معي».

وانعصر صوتها ووجهها وهي تردف: «إنه رجلٌ معقدٌ تماماً، يتلاعب بالناس ولا سيما النساء».

راحت كلير تنصت بانتباه، وهي تراقبها بمزيج من الشفقة والرعب وفروغ الصبر. وأضافت هيلين باختصار: «لوسي صغيرة في السن ولن تجيد التعامل معه، يا كلير. قد ينزف جرحها بشدة، إن أخذت ألاعيبه على محمل الجد».

فردت كلير ببطء: «أعرف. وهذا ما يخيفني. فأنا لا أعرف كيف أوقفها. وهو لن ينصت إليّ، كما لن تفعل لوسي».

ـ ألا تستطيعين إقناع مايك بالمجيء قبل الوقت المحدد وتقديم موعد الزواج؟

لمعت عينا كلير وأجابت: «هذه فكرة! وأنا متأكدة من أن لوسي ما زالت تحبه».

فمنحتها هيلين ابتسامةً: «حسناً، آمل أن ينجح ذلك، فأنا أحب لوسي. والآن، آسفة، عليّ الإسراع، ما زال أمامي الكثير من العمل اليوم. سأرسل إليك دعوةً للزفاف، ما إن تجهز البطاقات. أراك قريباً يا كلير».

وفي ذلك المساء، وفيما كان الجميع إلى مائدة العشاء، سألت كلير لوسي بلهجة عادية: «متى سيعود مايك بالتحديد؟ ألا يجدر بنا الإعداد للزفاف قريباً؟».

بدا وجه لوسي كبياض الثلج، ثم تمتمت من غير أن ترفع رأسها: «مايك لن يعود».

رفع الجميع رؤوسهم، وراحوا ينظرون إليها بحدة. أما كلير، فسألت وقد بدت متفاجئة وغير مصدقة: «لن يعود؟».

ـ لقد عرض عليه عقد عمل لثلاث سنواتٍ، ويريد أن يقبله. ولا ينوي أن يعود مجدداً حتى تنتهي مدة العقد.

بدا صوت لوسي مرتجفاً، عالياً وحاداً، أما شفتاها الشاحبتان فارتعشتا وهي تتكلم.

ـ ولكن ماذا سيحدث بشأن الزواج. هل سيؤجله، أم...؟

ـ لقد طلب مني أن أطير إلى أفريقيا، كي نتزوج هناك.

وانفعلت لوسي بغضب وهي تتابع: «لن يحضر الزفاف أيٌّ من أصدقائي. وحتى لو تمكنتم من دفع مصاريف الذهاب والإياب، لن يكون زفافاً حقيقياً! وأنا التي لطالما خططت لزواجي في كنيستنا، مع إشبيناتي، وباقة أزهار، فيما آلة الأرغن تعزف و...».

وفجأةً، أبعدت كرسيّها، ونهضت والغصّة في حلقها، ثم أكملت: «في الواقع، لن أرضى باحتفالٍ سريع في مكانٍ غريب، من دون وجود أحدٍ تقريباً. لذا، يمكنه أن ينسى الأمر!».

ولما هرولت خارج الغرفة، أطلق روبن صفيراً عالياً، ووجهه كئيب: «إلى متى ستبقى شعاع الشمس الذي ينير المنزل؟ لم لا يستطيع مايك أن يعود ويتزوجها بكل بساطة، ثم يخبرها عن أفريقيا؟».

وتبادلت كلير ووالدها النظرات.

ـ الآن عرفنا لمَ تتصرف بغرابة مؤخراً يا كلير!

ـ ألديك عنوان مايك في أفريقيا يا أبي؟ لا بد أنّ لديهم هاتفاً في تلك الكلية. لعلنا نقنعه بالعودة للزواج.

ـ قد نستطيع ذلك فعلاً. ولكن، حتى لو فعلنا، أتساءل إن كانت لوسي تود العيش في أفريقيا بعد ذلك.

وما إن سمعت صوت أبيها الرقيق حتى عبست وقالت: «أفهم شعورها بالخداع لأنها لن تحصل على هذا الزواج الذي لطالما حلمت به يا أبي! فلطالما كانت لوسي فتاةً رومانسية. ولا أظنها عنت أنها لا تريد العيش في أفريقيا، بل تريد زفاف أحلامها أولاً».

تمتم جورج سامر بجفاء: «أتساءل عن ذلك. أظن أن لوسي تبدي ردة فعلٍ إزاء أي تغيير من أي نوع. فهي لم تعش يوماً في مكانٍ غير هذا، ولا تريد ذلك أيضاً. أخشى أنها ما زالت تتصرف كالأطفال. وإلاّ، لقبلت قراره من دون أن تنتابها نوبة الغضب هذه، هذا إذا كانت تحبه، وتحترم

خياراته».

ثم هزّ رأسه وتنهد قبل أن يردف: «كلا يا كلير، لا أعتقد أنه يجب أن نتدخل. فهذا الأمر يعنيهما. ومن الواضح أن مايك وجد المكان الذي يحبه، ويريد العيش فيه، كما وجد عملاً يرغب في ممارسته، وعلى لوسي أن تواجه هذا الواقع. أما إن أردتِ التحدث إلى أحدٍ، فتحدثي إليها. ودعيها تفهم أن الحياة لا تعني أن ينفذ الناس مشيئتها، ويسلموا لها دائماً. والزواج خاصةً، ينص على التسوية، فيتوافق الشخصان على الأمور بالتساوي. وبصراحةٍ، أظن أن لوسي قد نضجت بما يكفي لتفهم هذا».

فأجابت كلير بقدرٍ من السخرية: «ربما الخطأ خطؤنا، لعلنا أفرطنا في تدليلها».

وعلّق روبن وهو يضحك: «لا شك في هذا. فلوسي فتاةٌ لطيفة، لكنها اعتادت على العيش وفق طريقتها الخاصة، ولا مجال لإنكار ذلك. ولطالما تساءلت كيف عساها تعتاد الحياة الزوجية. فكما تعلمان، مايك ليس برجلٍ يسهل التغلب عليه، وهو لن يسمح لها بأن تسيطر عليه كما تفعل معكَ ومع أبي».

ضحكت كلير أمامه، ولكنها، في سرها، أدركت أن كلامه وكلام والدها ينطوي على قدرٍ من الحقيقة. ومع أن لوسي فتاةٌ مدللة، إلا أن ذلك لم يمنع كلير من القلق من علاقتها بدنزل بلاك. في الواقع، اشتد قلقها الآن. فمن الواضح أن لوسي باتت أكثر حساسيةٍ في الوقت الحالي. ولا بد أن دنزل بلاك تمكن من الاقتراب منها بهذه الطريقة.

أما السؤال، فإلى أي مدى لوسي متورطة معه؟ أهو يساعدها في أزمةٍ فحسب، أم أن في المسألة أكثر من هذا؟

لاحقاً، كانت تنظف مائدة الطعام، حين تناهت إليها خطوات لوسي في الرواق، وهي تتجه نحو الباب الأمامي، فسارعت لتعترضها.

لكن لوسي نظرت إليها بتحدٍّ، وعيناها حمراوان عند حافتهما، بشكلٍ

يثير الشك.

ـ أنا خارجة!

ـ في هذه الساعة؟ إنها تقارب التاسعة!

ـ لست بطفلة! فكفي عن معاملتي هكذا!

شعرت كلير برغبة في صفعها، لكنها نجحت في التحكم بأعصابها بعد جهدٍ.

وأضافت لوسي بسرعةٍ وكأنها قرأت تعبيرها: «سألتقي أحدهم من أجل مهرجان المدرسة».

فسألتها كلير بحدة: «أهو دنزل بلاك؟».

وسرعان ما لمعت عينا لوسي بخوفٍ، وسألتها: «ماذا؟».

في الواقع، أرادت لوسي أن تستغل عامل الوقت لمصلحتها، وأن تتبيّن كمّ المعلومات التي تعرفها كلير، والكم الذي تحاول معرفته، لترى كيف يمكنها أن تراضيها.

وأعلنت كلير بنبرةٍ هادئة: «أعرف أنك تقابلينه، وأنه يساعدك في المهرجان. فقد أخبرتني مديرتك كل شيء... لَمَ لم تذكري لي الأمر؟ لم تخبريني مرةً أنك ترينه مجدداً».

فلوت لوسي فمها، وردت: «عرفت كيف ستكون ردة فعلك. لقد أوضحت لي أنك لا تريدين مني مقابلته مجدداً، ولم أكن أرغب في مجادلتك في الموضوع».

عندئذ، أنبتها كلير: «لم أظن أنك ستكونين بهذه السرية، منذ متى وأنت تقابلينه؟».

فأجابتها بعبوس: «لقد صادفته في البلدة في نهاية أحد الأسابيع، وأخبرته عن المهرجان، وحين قلت له إنني قد أحتاج إلى بعض النصائح عن المسرح، أبدى لطفاً غامراً، وعرض مساعدته».

هتفت كلير بجفاء: «بل صادف أنك طلبت منه المساعدة».

عندها، نظرت إليها لوسي بغضب: «حسناً، ربما كنت واضحةً. لكن لم أستطع تفويت هذه الفرصة. لقد تحمّس جميع من في المدرسة، وأظن أن دنزل يستمتع بوقته أيضاً. فهو مهتمٌ فعلاً، وقد اقترح العديد من الأفكار الجيدة. كما يتعامل مع العمل باحتراف، وليس كمجرد مجهودٍ مدرسيٍّ يقوم به بضعة هواة...».

قاطعتها كلير وهي تقطب جبينها: «أشك في أن شخص مثله سيهتم بما يظنه عمل هواةٍ. فهو محترفٌ مهم، ولم يكن يحق لك أن تطلبي منه ذلك...».

فردت لوسي بحدة: «كان باستطاعته، بكل بساطة، أن يتذرع بعمله، لكنه لم يفعل. وأظن أنه يستمتع بوقته. وأعرف أن الأطفال يعشقونه».

ثم حدقت في كلير وأكملت: «وأنا كذلك! أليس هذا ما تودين معرفته؟ أنت تشكين في أنني مغرمةٌ به. هذا واضحٌ تماماً. ماذا يجري؟ هذا هو السؤال الذي تتحرقين إلى طرحه، فأنا أعرفك جيداً. إنه لا يحاول إغوائي، بل هو في غاية اللطف والود، ويراعي مشاعري».

فأجابت كلير وقد استحالت عيناها داكنتين غضباً: «يمكنني تصور ذلك».

- بل لا يمكنك! فأنت تفتقرين إلى أي مخيّلة. ولا تملكين إلا سوء التفكير. في الواقع، كنت بحاجةٍ إلى إنسانٍ أحادثه، فأخبرته مشاكلي، وأنصت إليّ. وكان هذا كل ما أحتاجه: «إنسان يستمع إلى شكواي، ويهتم بي، ويأخذني على محمل الجدّ».

فهتفت كلير بغضب: «ما كان ينبغي أن تتحدثي إليه، بل إلى مايك!».

- ما نفع التحدث إلى مايك وقد اتخذ قراراً بشأن حياته، ولم يكلف نفسه عناء سؤالي عن الحياة التي أريد؟ اتضح لي أن ما من صفةٍ مشتركةٍ بيننا بعد الآن.

أصيبت كلير بالرعب، وما كان منها إلا أن رمقتها بنظرة غريبة،

فالوضع أشد سوءاً مما كانت تظن.

- لوسي، أنت تحبين مايك، فأنت مخطوبةٌ إليه منذ أشهر. على الأقل، تكلمي معه في الموضوع. لا يمكنك الاكتفاء بالرحيل. ألا يستحق منك هذا؟ كيف له أن يدرك شعورك إن لم تخبريه به؟

- إذا استطاع دنزل أن يتفهمني، فلم لا يتمكن مايك من ذلك؟

- لا يسدي إليك دنزل بلاك أي معروفٍ، بتشجيعك على التحدث إليه عوضاً عن الرجل الذي يفترض أنك ستتزوجينه. لوسي، إنه يسبب لك المشاكل، فتوقفي عن مقابلته بكثرة. ستصبحين مثل هيلين قبل أن تنهار بسبب فقر الدم.

ضحكت لوسي بغضب وقالت: «ولكنني لست مصابة بفقر الدم! ولا تدخلي هيلين في الموضوع! فدنزل لم يتسبب بمرضها، بل لطالما كانت هي عصبية».

- هذا ليس صحيحاً. كانت هيلين دائماً مليئةً بالسعادة والحيوية حتى التقت بدنزل بلاك.

فترددت لوسي قبل أن تقول بنزق: «على أيّ حال، ما علاقة كل هذا بي؟ لقد عادت إلى بول الآن، وبدت لي بحال جيدة في المرة الأخيرة التي رأيتها فيها».

تنهدت كلير، وهي عاجزةٌ عن إنكار أن هيلين تغلبت الآن على دنزل. لكنها لم تشأ الاستسلام.

- لوسي، لم لا تتصلين بمايك، وتتحدثين إليه صراحةً؟ سأدفع ثمن المكالمة. فاتصلي به الآن، هذه الليلة.

بدت بشرة لوسي شاحبةً للغاية، وارتعشت شفتاها وهي تقول: «لا، لا أريد التحدث إليه. لقد انتهى ما بيننا. وسأرسل له خاتمه. اسمعي، عليّ الذهاب. قلت لدنزل إنني سأصل عند التاسعة، وقد تأخرت».

سألتها كلير وقد عيل صبرها: «لِمَ ألحّ عليك لرؤيتك الليلة بشأن

المهرجان؟».

فنظرت إليها لوسي بعينين لامعتين جامحتين، وأجابت: «حسناً لا يتعلق لقاؤنا بالمهرجان. بل أريد رؤيته وحسب».

وإذا بيدٍ جليديةٍ تعتصر قلب كلير، فرجتها وهي تحاول أن تمسكها: «لوسي، لا تذهبي. إنه خطرٌ عليك، ألا تفهمين ذلك؟ أنظري إلى نفسك بحق السماء، تبدين رهيبة!».

فدفعتها لوسي عنها بقوة: «ليس هذا رأي دنزل! إنه يقول إن وجهي ملائمٌ للتصوير. واسمعي هذا! يريد أن يخضعني لتجربة فيلم، وسيضمني إلى فريق فيلمه الجديد!».

***

٥ ـ قانون كلير

في تلك الليلة، تقلبت كلير في فراشها. فكيف يمكنها النوم، وأختها توشك على تدمير حياتها بنفسها؟

وحين أخبرتها لوسي عن تجربة الفيلم، ودورها في فيلم دنزل بلاك الجديد، ارتكبت كلير خطأ الصراخ بغضب: «أنت لا تعتقدين أنه جادٌّ في قوله؟».

ـ يقول لي العديد من الناس إنه يجدر بي التمثيل؟

ثم أشاحت عنها بغضبٍ مماثل، وأخذت تتأمل انعكاسها في المرآة الجدارية بتمعنٍ طويل. فما كان من كلير إلا أن ضحكت من غرور أختها السخيف ثم عمدت إلى مضايقتها:

ـ أنت تقصدين العديد من الرجال الذين يرغبون في مواعدتك أليس كذلك؟

وبالطبع، تلقت نظرةً غاضبةً من لوسي التي دمدمت بحدةٍ: «لكن دنزل يعني ما يقول. وهو لا يتبجح! سأخضع لتجربة الفيلم يوم السبت، فتقبلي هذا الواقع!».

سكتت كلير، وقد علت الصدمة وجهها، مما دفع لوسي إلى رسم ابتسامةٍ ظافرةٍ صغيرةٍ على محياها، وقد أسعدتها ردة فعل أختها. وأخيراً، أضافت بعنف: «ولا تظني أن بإمكانك ردعي. فهذه حياتي، وليست حياتك. لم أعد طفلةً بعد الآن، لذا، توقفي عن التدخل».

www.elromancia.com

لكن، كيف باستطاعة كلير أن تفعل هذا؟ فمنذ وفاة والدتهما، وكلير مسؤولةٌ عن لوسي والصبيّين. أما جورج سامر، فكان والداً عطوفاً، لكنه تقليديٌ في تفكيره، وقد نشأ مؤمناً أنه من واجب المرأة أن تربي الأولاد وتدبّر شؤون المنزل. لذا، عندما ماتت زوجته، ترك هذا الدور لابنته الكبرى من غير أن يعيد التفكير في ذلك. وهي نفسها لم تحاول أن تتملص مما اعتبرته واجبها. وكان بقية الأولاد في ذلك الوقت بحاجةٍ إلى حنان الأم ورقابتها ورعايتها. ولم تكن المهمة سهلةً على كلير، إلا أنها بذلت ما بوسعها.

ولو كانت حرةً لتتصرف على هواها، فتخرج كل ليلة، وتعيش لنفسها وتستمتع بوقتها، لأصبحت حياتها مختلفةً تماماً. ومع مرور السنوات، بدأت العلاقات التي تبنيها تذبل ثم تموت، لا سيّما مع افتقارها لوقت الفراغ. فقد توقع منها الرجال أن توفر ولو قليلاً من الوقت لهم. ولم يشاؤوا أن يصطفوا من أجل الحصول على قدرٍ من اهتمامها، ولا رغبوا في منافسة صبيٍّ يعاني الحصبة، أو والدٍ مصاب بالأنفلونزا ويحتاج إلى رعايةٍ دائمة. وهكذا، استسلم أشد الرجال صبراً، ورحلوا عن حياتها.

أما من ناحيتها، فلم تكن جديةً بشأن أيٍّ منهم، باستثناء هال طبعاً. وحين تستعيد ذكرى هذه العلاقة، تدرك أنها لم تعره كل اهتمامها يوماً. لذا، ربّما لم يكن مخطئاً كلياً في ما أقدم عليه، فهي كانت من الانغماس في رعاية عائلتها بحيث لم تشأ أن تقع في الحب. وربما باتت هذه عادةً، ولعل لوسي محقةٌ، فهي فعلاً تحاول إدارة حياتها عنها. ولكن حين تراها متوجهة نحو الخطر مباشرة، كيف يسعها أن تكتفي بالتفرّج، وتدعها تمضي نحو مصيرها؟

وبعدما أمضت ليلة قلقة، نهضت من فراشها، شاحبة الوجه، ولا شهية لها للافطار. وحين ألقت نظرةً على نفسها في المرآة، تعرفت بحزن إلى عوارض ضحايا دنزل بلاك، وقد بدأت تبدو على محيّاها.

وسرعان ما سرت فيها قشعريرةٌ. فما الذي دفعها إلى هذا التفكير بحق

السماء؟ لن يحدث لها هذا أبداً! أبداً! لا سيما أنها تعرفه تماماً، فرجلٌ كدنزل بلاك لا يقوم بألاعيبه في وضح النهار، بل يتخذ ضياء القمر والموسيقى الرومانسية حليفين له، ويستهدف دائماً نساءً كهيلين ولوسي، أي نساء حزيناتٍ، وحيداتٍ، يتقن إلى قليلٍ من الرومنسية.

لكنه، لن ينجح في مبتغاه، على الأقل، ليس مع لوسي. وقررت كلير بعزم أن تنقذ أختها، حتى ولو لم تشأ لوسي ذلك. قد تكون المرة الأخيرة، ولكن كلير لن تتنحى جانباً، وتشاهد أختها وهي تدمر حياتها، لا سيّما حين يكون باستطاعتها أن تضع حداً لما يجري.

وباشرت أولى خطواتها في الصباح حيث اتصلت بمايك في دار المعلمين وبدت في صوته نبرة كئيبة.

ـ أتتصلين بي لتخبريني أن لوسي التقت بشخصٍ آخر؟

فتفاجأت كلير: «ما الذي يجعلك تعتقد...».

ولكنه قاطعها: «لست غبياً وأستطيع أن أقرأ ما بين سطور رسائلها. لقد تغيّرت في الأشهر القليلة الماضية».

ـ مايك، إنها غاضبةٌ منك كثيراً، وما من شخصٍ آخر في حياتها. كانت تتحرق شوقاً إلى يوم زفافها منذ مدةٍ طويلة، ولعلك أنت لا تدرك كم تهتم المرأة بهذه المسائل.

كانت تتكلم في سرعةٍ، وتختصر في شرحها، وهي تحاول أن تقنعه بوجهة نظر لوسي. وحين توقفت، قال مايك وقد فرغ صبره:

ـ لكن، إذا عدت إلى المنزل لأسابيع قليلة بهدف الزواج وقضاء شهر العسل، فسيكلفني ذلك مالاً كثيراً. ظننت أنه من الأفضل أن نتخلى عن حفل زفافٍ مكلف، إضافةً إلى رحلتي إلى الوطن. وبدلاً من ذلك، نستخدم هذا المال لشراء معداتٍ لمنزلنا الجديد هنا. بدا لي هذا منطقياً أكثر.

فخففت عنه كلير بلطف: «أنت محقٌ طبعاً.. لكن، يا مايك... لوسي فتاةٌ رومانسية، وقلبها يحلم بزفافٍ أبيض، مع عائلتها وكل

أصدقائها، في الكنيسة التي عرفتها طيلة حياتها. وتلك هي طريقتها في بداية حياتها معك. هكذا يعمل ذهنها، يا مايك، وهي تهتم كثيراً بالعائلة والتقاليد. وحتى في صغرها، كانت تحب أن تُروى لها القصص قبل النوم بالطريقة نفسها كل مرة. وهي تكره التغيير الذي يطرأ على روتينها، وتملك عقلاً تقليدياً جداً».

ثم توقفت قليلاً، وأردفت بنعومة: «أليس هذا ما أحببته فيها؟».

صمت مايك قليلاً، ثم سألها باختصار: «أتظنين أنه عليّ أن أستسلم لرغباتها، فأوافق على عرسٍ أبيض كبير في الوطن؟».

ـ أنا متأكدةٌ من أن لوسي تحبك يا مايك، وأن الحزن سيتملكها إن خسرتك. إسمع، لدي فكرة، ما رأيك في أن تسافر لوسي إليك في الحال، فتشاهد بنفسها أين ستعيشان معاً. وبما أن مدرستها تقفل أبوابها لعطلة قصيرة ابتداءً من يوم الجمعة، يمكنها أن تقضي معك أسبوعاً.

أجفل مايك وقال: «سيكون هذا رائعاً، لكن.. تعرفين أن بطاقة السفر غالية الثمن، وأنني لا أملك مالاً كثيراً».

ـ سأدفع ثمنها، فتكون جزءاً من هديتي لزواجكما. لكنني أريد التأكد من أنك ستلاقيها في المطار وتعتني بها.

ـ طبعاً سأفعل ذلك! لا تقلقي!

ولما شرع الحماس يتغلغل في صوته، ابتسمت كلير.

ـ أيمكنك أن تحجز لها في فندقٍ بالقرب منك؟

ـ قرب دار المعلمين فندقٌ يقيم فيه أهالي الطلاب حين يزورون أبناءهم.

ثم سكن قليلاً، قبل أن يتابع بريبٍ:

ـ كلير، هل كلّمتها بشأن هذه الفكرة؟ أعني، هل تريد أن تأتي؟ بإمكاني أن أتصل بها، و...

ـ لا، لا تتصل بها يا مايك، فقد أردت أن أكلمك أولاً، وأتأكد من إمكانية تحقق الفكرة. لكنني على يقينٍ من أن لوسي ستسعد كثيراً. ولن

أفاتحها في الموضوع قبل أن أتمكن من حجز بطاقةٍ أفاجئها بها هذا الأسبوع. دع الأمر لي. سأتصل بك مجدداً صباح الجمعة، لأعلمك بالتدابير التي تمكنت من تحضيرها.

بدا من السهل على كلير أن تؤمّن بطاقة سفر للوسي، لكن كان عليها القيام بتدابير أخرى قبل أن تفتح الموضوع مع أختها.

وفي وقت لاحق من ذاك العصر، قادت سيارتها إلى البلدة المجاورة، وأمضت بعض الوقت في متاجر مختلفة. ومع أنه صعب عليها الحصول على ما تبحث عنه، إلا أنها تمكنت في النهاية من تأمين كل شيء. ثم تركت مساعدتها الجديدة في المكتب، وعادت إلى المنزل في وقتٍ كانت فيه متأكدة من أنه خالٍ. فأبوها يمارس رياضة الغولف مع أصدقائه، والباقون لن يعودوا إلى المنزل طبعاً قبل انتهاء دوام المدرسة.

وكان ذهن كلير عملياً جداً. وقد تلقت مختلف أنواع المعلومات المفيدة من أبيها وأخوتها على مرّ السنين. فقضت ساعاتٍ عديدة في مشغل جورج سامر، المزوّد بمختلف المعدات، ثم نقلت ما حضرته إلى سيارتها، قبل وصول والدها ولوسي بقليل.

ـ لقد عدتِ إلى المنزل باكراً.

فابتسمت كلير لأبيها، وقالت: «قررت التوقف عن العمل عند العصر، لأسترخي قليلاً. لكنني أعددت الطعام. ففي الفرن طبقٌ، سأضيف إليه البطاطس. وسأعدّ لك كوباً من الشاي، قبل أن تستحم».

جلس أبوها بسعادةٍ، وراح يخلع حذاءه المغطى بالوحل، فيما هو يتحدث عن الغولف، بسحر المدمن الذي لا يدرك أن غيره لا يستمع إلى كلامه.

أما كلير، فكانت تنصت إليه تارةً، وتفكّر في مخططاتها لهذا المساء طوراً. وقد ولدت الإثارة فيها اضطراباً عكّر صفو معدتها، حتى بلغ أعصابها، وباتت تجد صعوبةً في التركيز على أي عملٍ آخر.

وأخيراً، صعد جورج سامر إلى الأعلى، وفي يده فنجان الشاي. فسألت كلير لوسي بصوتٍ جاهدت ليبدو عادياً: «ماذا تفعلين الليلة؟ أستخرجين مع دنزل بلاك مجدداً؟».

- كلا، لقد قال دنزل إن لديه الكثير من الأعمال المكتبية الليلة. كما أنه سيأوى إلى الفراش باكراً، لذا، طلب مني أن أقضي مساءاً هادئاً بدوري، فأسترخي، وأنام جيداً بانتظار تجربة الغد.

ثم تمتمت على عجلٍ وهي شاحبة الوجه: «يسهل عليه قول هذا. لكنني من الهلع، بحيث لا أقوى على الاسترخاء. أما عن النوم، فأنا متأكدة من أنه لن يغمض لي جفنٌ الليلة».

وراحت كلير تراقبها وهي تطوف في المطبخ وكأنها تبحث عن شيءٍ ما، فتغيّر مكان بعض الأواني، ثم تنظر من النافذة إلى أزهار النرجس التي أزهرت في الحديقة.

- لمَ لا تذهبين إلى السينما؟ لقد طلب مني جايمي أن آخذه إلى هناك الليلة، ولكن لا أشعر برغبةٍ في ذلك.

فأحسّت لوسي بالإغراء، لكنها بدت مترددة.

- قال لي دنزل إنه يجدر بي أن أرتاح...

- لكن الذهاب إلى السينما مريح. فكل ما ستفعلينه هو الجلوس في الظلام، ومشاهدة فيلم.

- لكن دنزل قد يتصل بي بهدف الاطمئنان عليّ.

فأجابت كلير بجفاء: «سأخبره حينها أنك ترتاحين».

عندئذ، ضحكت لوسي وقالت: «لقد أقنعتني!».

ولمّا كان أبوها وروبن مرتبطين بمواعيد هذه الليلة، وجدت كلير نفسها وحيدةً في المنزل عند السابعة والنصف. وما أن حانت الساعة الثامنة إلا ربعاً، حتى انطلقت في طريقها إلى كوخها.

وحين ركنت سيارتها في الخارج، رأت وجه دنزل يطل من النافذة

العليا. كان الليل قد خيّم، فيما نورٌ شحيحٌ ينير غرفته، راسماً هالةً حول رأسه. رأت عينيه تحدقان فيها، وفمه يلتوي بابتسامةٍ مزعجة، فأحست برعشة تسري فيها.

كان يرتدي قميصاً حريرياً أسود غير مزرر بإحكام، أم تراه ثوب نومه؟ فتح النافذة ليتكلم معها، فنفخت الريح في قميصه، حتى لمحت تحت الرداء الناعم تفاصيل جسده المشدود. وإذا بحلقها يجف، فتبتلع ريقها بعصبية.

حتى من تلك المسافة، شعرت بذبذبات تتغلغل في جسدها، فسرى دمها في أعضائها بسرعةٍ، وتدفقت موجات الخوف فيها في مدٍ وجزرٍ متواليين. وما كان منها إلا أن أقنعت نفسها بأنه الخوف على أختها ليس إلاّ. فهي لا تخشاه أبداً، وتستطيع التعامل معه. نعم، إنها لا تخشى على نفسها أبداً.

سألها: «هل تريدينني؟».

ميّزت بوضوح السخرية التي تنطوي عليها كلماته، وشعرت ببشرتها تحترق. وأخيراً. قالت، وهي تختار كلماتها بعنايةٍ: «أريد التكلم معك».

فأعلن، وذلك البريق الساحر لا يفارق عينيه الداكنتين:

- كنت أتساءل متى سأسمع صوتك. وأيقنت أنني سأراك ما أن تكتشفين أنني اقترحت على لوسي أن تخضع لتجربةٍ تلفزيونية.

لكن كلير لم تجب، فقد جعل التوتر أسنانها تصطك حتى آلمها فكّها. إنه لاذعٌ حقاً، وهذا ما يضايقها. إن أمكنه أن يتكهن بردة فعلها، فهل بمقدوره أن يعرف إلى أيّ مدى ستصل لكي تحبط مخططاته بشأن لوسي؟

قالت وهي تتصنع البرودة: «هل تعتقد أن بإمكانك النزول؟ فأنا لا أريد أن أصرخ لأبلغك كلامي».

- يا للأسف. كنت أفكر في رومانسية هذا المشهد. إنه مشهد الشرفة في مسرحية روميو وجولييت، مع انقلاب الأدوار، إذ يحتل روميو الشرفة، فيما تقف جوليت تحت نافذته.

فردّت كلير بحدة: «هلاّ تفضّلت ونزلت؟».

ضحك وقال: «لقد لاحظت قبلاً أنك لا تملكين حسّ الدعابة. حسناً، كنت أقرأ في السرير، وأنا أرتدي البيجاما، فأمهليني كي أبدّل ملابسي قبل أن أنزل. وإن كنت ما زلت تملكين المفتاح، تفضّلي بالدخول».

وأغلق النافذة قبل أن تبدأ كلير بالرد: «بدّل ملابسك».

وماتت الكلمات على شفتيها. كان عليها أن تستجمع أنفاسها استعداداً لتنفيذ خطتها. ففي هذه الليلة، عليها أن تصفّي ذهنها، وألا تدعه يفلت من يدها، وإلا فعلى الدنيا السلام.

وفيما كانت تدخل إلى الكوخ، نزل دنزل السلالم. بدا رائعاً في ردائه الأسود المنسوج من الساتان. وشعرت كلير بأنفاسها تنحبس في حنجرتها.

كانت عيناه الرماديتان تتفرسان فيها من رأسها إلى أخمص قدميها، حتى أحست وكأنهما تركتا بصماتٍ على بشرتها. وما لبث أن سألها: «أتريدين شراباً؟».

كانت ترتدي كنزةً زرقاء شاحبة من الأنقره، ويحيط بعنقها عقدٌ من اللآلىء، فيما تنورتها الرمادية تماثل السترة التي تلبسها لوناً. ولم تكلف نفسها عناء تزريرها، فالجو في الربيع دافىءٌ، وهي غالباً ما تتجول في سيارتها. وهكذا، كانت ملابسها دائماً كلاسيكية وبسيطة وانكليزية الطابع. ورغم ذلك أحست أن نظرته جردتها من ملابسها تقريباً، فارتعشت امتعاضاً.

ثم تذمرت وهي ترجو أن يقرأ العدائية في عينيها: «لا، شكراً».

لكن، ولو فعل، لم يقدم إلاّ على الضحك. وما لبث أن ابتسم لها ابتسامةً ساخرة.

ـ أما أنا، فبحاجة إلى شراب. يبدو أنك أتيتِ لإثارة المشاكل، وبما أنك صعبة المراس، سأحتاج إلى شرابٍ قوي كي أقاومك!

وسار نحوها متوجهاً إلى المطبخ، فسارعت تستند إلى الجدار، لتتنحى

عن طريقه. غير أنه توقف فجأةً، وأسدل نظراته عليها، ولهيب نارٍ في عينيه، دفع كلير إلى الابتعاد بإجفالٍ أكثر.

عض على شفته، وقال لها: «لا تفعلي هذا!».

فسألته بدفاعٍ وهي ترى فمه يلتوي: «ماذا؟».

ـ أنت تتقلصين في كل مرةٍ أقترب فيها منك. ماذا الذي تخشينه مني؟

وازداد دنواً منها، حتى كاد يلامسها، وشعرت كلير بالدم ينبض في عنقها. لكنها رفعت رأسها، ونظرت عيناها الزرقاوان إليه بتحدٍّ، ثم ردت بحدة: «ربّما مما تفعله الآن! تجرأ على لمسي بإصبع واحد وسوف...».

ابتسم بكسل، ثم رفع سبابته ولامس عنقها، حيث يخفق نبضها. وأخيراً همس: «وسوف ماذا؟».

ابتلعت كلير ريقها، وقد انحبست أنفاسها، وشغلتها المقاومة عن أي محاولةٍ للكلام. فمرر إصبعه بتمهلٍ على طول عنقها، وكأنه يتّبع شريانها، مما دفع بالدم إلى التدفق بسرعةٍ أكبر وحرارةٍ أشد.

وأخيراً، تمكنت من القول: «توقف!».

عندها، وثب إصبعه إلى خدها، وداعب حناياه المرتعشة.

وتمتم بنعومة: «أتعلمين؟ ثغرك يفضح أسراراً. ومع أن هاتين العينين الزرقاوين فيهما من البرودة ما يقول: «إرفع يدك عني!»، إلا أن هذا الفم هو إغراءٌ صرف، وينبىء بأسرارٍ مختلفةٍ تماماً».

جمعت كلير غضبها، عساها تخفي اضطرابها وهتفت: «إنه يقول إنك إن لم تتوقف عن لمسي، فأقسم أنني سأضربك بالآلة الحادة الأقرب».

ثم دعمت كلامها بدفعه عنها بيديها الاثنتين.

لكن ملامسته كانت خطأ، بل خطأً فادحاً. فالأمر أشبه بمحاولة دفع جدارٍ حجري متين. ولأنها ما أن لامست رداء الساتان الأسود بكفيها، حتى تقدم نحوها، إلى أن أوقع يديها في الشرك، وباتت وكأنها سجينته.

حاولت أن تحرر نفسها وقد انحبست أنفاسها، وهي تحت وقع نظراته

القاتلة من تحت أهدابٍ تكاد تكون منسدلة. وتعمد أن يميل إليها، ويداه تمتدان كلٌّ إلى ناحيةٍ من ناحيتي رأسها، زمجرت: «ابتعد عني! إن كنت تظن أن بإمكانك أن تمارس معي الألاعيب التي تمارسها عادةً مع النساء، فأنت مخطئ!».

لكنه تمتم: «هذه ليست بلعبةٍ، يا كلير. بل إنها الحرب، وأنت سجينتي».

وما لبث أن دنا منها أكثر أكثر، فيما صوته يقارب الهمس: «يا للمسكينة كلير... إنها سجينةٌ عاجزة».

ومع أنه كان يبتسم، إلا أن عينيه بدتا عميقتين، داكنتين، حتى عجزت عن التخلص من وطأة سيطرتهما.

وكان بها توقٌ مخيف إلى إغماض عينيها. فلنظرته تأثير التنويم المغنطيسي، ومبادلته النظرات تشل ذهنها، حتى أمسى التفكير عمليةً عسيرة. واستبد بها وهنٌ شديد، وودت لو تكف عن مقاومته، وعن مقارعة هذا الشعور الذي ولده فيها. في هذا الوقت، كانت حدقتاه المظلمتان تسبران أغوارها، فنظرت إليهما وارتجفت.

وراح عقلها يصارع جسدها، فيذكرها ببرودة أن هذا هو ما يقترفه ذلك الرجل في حق النساء! فكيف لم تتعرف إلى هذا الإحساس الذي يجتاحها؟ الوهن، الحمى، الحاجة... كيف لم تكتشف كل هذا؟ فهيلين أخبرتها بنفسها كيف باتت مهووسةً بهذا الرجل. بل قالت لها إنه يثير المشاكل للنساء، وكانت محقةً. ولم تدرك كلير إلا في هذه اللحظة الخطر الذي يمكن أن يشكّله، فأخذ قلبها يخفق بشدة بين أضلعها.

ما كانت لتقوى أبداً على منعه من معانقتها. لكن ما أن دنا منها أكثر، حتى رن جرس الهاتف، فتصلب دنزل، ثم رفع رأسه ليطرق السمع.

ـ اللعنة. مواعيد بعض الناس عجيبة. كان عليّ أن أشغّل المجيب الآلي.

وتابع الهاتف رنينه، لا يعرف رحمةً. فما كان منه إلا أن ابتعد بتنهد: «أخشى أنه عليّ الإجابة، فأنا أتوقع اتصالاً مهماً».

ثم نظر إليها من تحت أهدابه، مبتسماً وقال: «لا تذهبي».

وفيما توجّه إلى غرفة الجلوس، استندت كلير إلى الحائط وقد جفّ حلقها، وهي بالكاد تقوى على الوقوف، بينما أوصالها ترتعد.

ولما توقف الرنين، سمعت بوضوح، وقد تجلى في صوته الجفاء وفروغ الصبر: «نعم؟ نعم، أهلاً جو. إذاً، هل باشروا به؟».

ثم سكت، قبل أن يضيف بسخرية: «لم أتوقع ذلك... إذاً ما الخطوة التالية؟».

خطت كلير الخطوات التالية بتصلب، لكن رجليها كانتا من الضعف، بحيث اضطرت إلى الجلوس على درجة السلم الأولى. وأخذت تستمع بشحوب إلى الحدّة المتسلطة في صوت دنزل في غرفة الجلوس. وعرفت أنه ليس من السهل أن يتعامل معه موظفوه. لكن، على أي حال، ليس من السهل على أي كان أن يتعامل معه بمنطق.

وبعد برهةٍ، أعاد دنزل السماعة إلى مكانها، وعاد إليها. في ذلك الوقت، كانت قد استعادت رشدها تقريباً، وتمكنت من مواجهته من غير أن تبدي الكثير من الإنفعال.

ـ هل أخبرت لوسي أنها ستكون النجمة الجديدة لفيلمك أو ما شابه؟

فرمقها بجفاء وقال: «بالكاد قلت هذا فلست متأكداً من أنها تستطيع التمثيل حتى».

ـ إذاً لماذا تخضعها لتجربة فيلم؟

ـ إنها تتحرق شوقاً للعمل في فيلم، والكاميرا تحبها. لقد التقطتُ بضع صورٍ لها، وأستطيع أن أجزم أنها ستبدو جميلةً في الفيلم أيضاً. ويصادف أن فيلمي الجديد سيصور بالقرب من هنا...

ـ أتعني فيلم برونتي؟

ابتسم لها ابتسامةً محتالة وسألها: «أهي الإشاعات المحلية ثانية؟ نعم، أعني فيلم برونتي. سأحتاج إلى العديد من الممثلين الثانويين. وسيضم الفيلم أدواراً صامتةً صغيرة».

كانت كلير ترتجف غضباً، وهي تجيبه: «أهذا ما تخططه للوسي؟ أهذا ما سترمي بزواجها من أجله؟ أتحظى بدورٍ صغيرٍ صامتٍ في فيلمك الجديد إن حالفها الحظ، وإلا مثلت دوراً ثانوياً مع حشدٍ من الناس لبضعة أيام؟».

ـ متى ستتوقفين عن لومي لكل ما يصيب غيري؟ لا دخل لمشاكل لوسي مع خطيبها بي، تماماً كما لا شأن لي بمرض هيلين.

وبعد أن امتلأت عينا كلير بالكراهية، رأته يقطب جبينه. وما لبث أن قالت له باحتقار: «لن أضيّع وقتي سدىً في مجادلتك. لكني لن أدعك تدمر حياة أختي».

وفي هذه اللحظة، عرفت لماذا جاءت، فوقفت وأعلنت: «لقد جئت لأجمع بعض الأغراض من الخزانة المقفلة في حجرة النوم الصغيرة. لن يستغرق ذلك مني وقتاً طويلاً، وبعدها، سأمضي في طريقي».

ثم صعدت السلالم، وتركته خلفها يحدق فيها. وما إن وصلت إلى الغرفة الصغيرة، حتى فتحت الخزانة، وهي قطعة الأثاث الوحيدة في الغرفة، وتحتوي على أغلب الوثائق المتعلقة بالمنزل. وبعد أن أخرجتها، خرجت من الغرفة على أطراف أصابعها، وأطرقت السمع. وتمكنت من سماع دنزل وهو يتنقل في المطبخ، فانتقلت بهدوءٍ إلى الغرفة التي يستخدمها، واستعدت. وبعد عدة دقائق، انسلت منها مجدداً، وعادت إلى الغرفة الصغيرة، حيث راحت تتصفح الوثائق.

وبعد وقتٍ قصير، تناهت إليها خطوات دنزل وهو يصعد السلالم، ثم ظهر عند الباب المفتوح، ووقف فيه يراقبها.

أما كلير، فالتفتت إليه، وأعلنت: «أوشكت على الانتهاء منها».

فقال، وهو يضع كوباً على الخزانة: «أحضرت لك عصير التفاح».

عبست كلير وهي ترى محتويات الكوب لا لون لها: «أنا آسفة، لكنني لا أريد هذا النوع. ألديك عصير برتقال؟».

ـ طبعاً، ماذا تريدين أيضاً؟

ـ لا شيء، يكفيني عصير البرتقال.

هزّ كتفيه، ثم وضع كوبه جانباً، ونزل إلى المطبخ. وهنا، فتحت كلير حقيبتها، وأخذت منها قرصين صغيرين. وما إن سمعت دنزل يعود، حتى أخفتهما في راحة يدها، واستعدت وهي تسمع الخطى تتسارع على السلالم.

ولما قدم إليها كوب العصير، تناولته قائلةً: «شكراً».

ارتشفت قليلاً، فيما التفت دنزل ليمسك بكوبه.

وما كان من كلير إلا أن دست القرصين في كوبها، وهي تنظر إلى ظهره بحذر، ثم ذوبت المزيج بسرعة. وأخيراً، أدنت الكوب من شفتيها، وهي ترقب التفات دنزل. فلما فعل، عبست بوضوح، وأنزلت الكوب مجدداً وهي تتفرس فيه.

ـ ماذا وضعت فيه؟

قطب حاجبيه وردّ: «لم أضع فيه شيئاً».

ـ ولكن طعمه غريبٌ.

ـ ماذا تعنين بغريب؟

رفعت إليه الكوب وأجابت: «تذوقه بنفسك».

فأمسك الكوب والغضب في عينيه، ثم رفعه إلى فمه، وشرب القليل من العصير.

ـ ليس فيه شيء. طعمه لاذعٌ قليلاً، ولكن تلك هي حال عصير البرتقال أحياناً.

ورغبةً منها في التأكد من أنه شرب ما فيه الكفاية، سألته ببرودة: «هل شربت منه فعلاً، أم أنك ارتشفت قدراً يسيراً وحسب؟».

فسدد إليها نظرةً رصينة تفتقر إلى الابتسام، ثم ابتلع جرعةً كبيرة من

الشراب، وقال بحدة: «أترين؟ إنه لا يشكو من سوء. لكن لا داعي لشربه، إذا لم يرضك».

ووضع الكوب على الخزانة محدثاً صوتاً عالياً أجفل كلير، فتمتمت في نفسها أن أعصابها متوترة بما يكفي.

ـ لا داعي لأن تفقد أعصابك! اعتقدتُ أنّ طعمه غريبٌ، هذا كل ما في الأمر.

تضاعف الغضب في عينيه، واتخذ فمه شكلاً بارداً مستقيماً وهو يقول:

ـ ماذا تظنين أنني فعلت بعصيرك؟ هل اعتقدتِ أنني وضعت فيه مخدراً؟ ومن ثم ماذا؟ أعتدي عليك؟ أهذا ما كنت تفكرين فيه؟

أغلقت الخزانة ويداها ترتجفان قليلاً، وحاولت ألا تنظر إليه، ثم ما لبثت أن تذمرت: «اسمع، أنا آسفة. أيرضيك هذا؟».

فهتف بحدة: «كلا، لا يرضيني. فلم أحتج يوماً إلى تخدير النساء».

عندئذ، فقدت كلير أعصابها بدورها: «آه، ألم تفعل؟ حسناً، ستحتاج إلى صرعي بحجر قرميد».

فردّ عليها: «لو كان معي حجر قرميد الآن، لاستعملته. ولكن صدقيني، ليس بهدف إغوائك! فلا يبلغ بي التوق اليائس إلى النساء هذا الحد!».

أحست بوجهها يحترق. وما كان منها إلا أن استدارت على عقبيها، وخرجت بغضبٍ من الغرفة، وهي تكاد تفقد توازنها. فتبعها عن قرب، وكاد يصطدم بها عندما وقفت قرب غرفة نومه. وهنا، تذكرت أنها على وشك القضاء على خطتها بانفعالها هذا.

فاستجمعت أنفاسها، وحاولت أن تبدو أكثر وداً. تمتمت وهي تجيل نظرها في الغرفة التي تزينها المصابيح الهادئة: «أرى أنك أضفيت جواً مريحاً على الغرفة».

بالكاد لاحظت التغيير عندما دخلت الحجرة في المرة الأولى، فهي لم تكن

تملك الوقت الكافي لتتأمل الجو عن كثب. أما الآن وقد فعلت، فقد أدركت أنها لا تمت إلى الغرفة التي تذكرها بصلة.

كان سقف الغرفة مطلياً بالأبيض، والأثاث في الغرفة قليلٌ قليل. أما الآن، فاكتسى ظلاً دافئاً مشمشياً، وزيّنت النوافذَ ستائر جديدة أكثر عمقاً. كما أضاف عدداً من المصابيح، ومكتباً وضعه قرب النافذة، ومقعداً من الجلد، وبقربه طاولةٌ وخزانة كتبٍ. وحفلت الجدران برسوماتٍ ولوحاتٍ مائية ومخطوطاتٍ وصورٍ.

تثاءب بغتةً، وما لبث أن أجاب بنعاس: «ألا تعترضين على التغييرات التي قمتُ بها؟».

فأسدلت أهدابها، ونظرت إليه نظرة جانبية، ورأته يتثاءب مجدداً.

ـ بالطبع لا. لقد أحلتَها غرفةً دافئةً جداً، وأنا أحب الجدران المشمشية اللون. لا بد أن المنظر رائعٌ صباحاً حين توشك الشمس على الشروق. ويا للصور الكثيرة! هل ترسم؟

فأقرّ بلهجة عادية: «رسمت بعض هذه اللوحات المائية».

ـ حقاً؟ أيها؟

وما لبثت أن خطت إلى داخل الغرفة، ونظرت إلى إحداها، فيما دنزل يتبعها وهو يتثاءب بتشنج.

ـ نعم، رسمت هذه.

فقالت وقد تفاجأت برسمه المتقن: «إنها جيدة جداً».

إنه يستطيع الرسم فعلاً. ومع أن المنظر الطبيعي حوى تفاصيل قليلةٍ، إلاّ أن الخطوط السوداء حملت قوةً وتأثيراً لفتا انتباهها.

هزّ كتفيه لا مبالاةً، وعلّق: «هذا رسمٌ تخطيطي لخلفيةٍ في فيلم لي. كنت بحاجة إلى تخيّل كل تفصيل قبل أن أبدأ بالتصوير، وإلى درس كلّ إطار كي نحدد ما سنحتاجه. انظري، هذا مشهدٌ داخلي في منزلٍ، من فيلمي الأخير».

نظرت إلى الرسم، واستعادت ذكرى مبهمة لمشهد الفيلم هذا، وهو مشهدٌ شديد الحميمية تقوم فيه الممثلة الأيرلندية المكسيكية بالرقص لحبيبها.

ولمّا تثاءب مجدداً، رمقته بنظرةٍ جانبية سريعة، فتمتم بعبوس: «آسف. لقد أخبرتك أنني مرهقٌ، ولكنني لم أدرك أنني بهذا الإرهاق».

وسرعان ما ترنح إلى الوراء، وتهالك فجأةً على السرير، وهو غارقٌ في الحيرة. فتقدمت كلير نحوه، ووضعت يدها على جبينه.

- لعل فيروس الإنفلونزا المنتشر حالياً قد أصابك. ومع أنه فيروس قويٌّ جداً، إلا أنه لا يدوم سوى أربعٍ وعشرين ساعةٍ. والآن، من الأفضل أن تستلقي.

- لا أستطيع. فعليّ أن أوصلك إلى الأسفل...

ثم سكت قليلاً قبل أن يكمل: «يا إلهي، كم أشعر بالغرابة!».

أرجعته كلير بلطفٍ إلى الوراء، فلم يبدِ أيّ مقاومةٍ، بل ترامى ببساطةٍ على السرير، ثم أغمض عينيه وهو يدمدم: «رأسي...».

وساد السكون إلا من صوت تنفسه الناعم، فنام مفتوح الفم، متورد الوجه.

مالت كلير فوقه، وأنصتت وهي تراقبه بعزم. إنه في حالة سباتٍ عميقة. وشعرت بنفسها حائرة بين الذهول والانتصار. لقد نجحت خطتها، من دون أن تصادف أي مشكلةٍ على الإطلاق! في الواقع، كانت خائفةً من ألا تؤثر عليه الحبوب المنومة إلا بعد وقتٍ طويل، فضاعفت الجرعة التي وصفها الطبيب، ونالت ما تتمنى بسرعةٍ.

وأخذت نفساً عميقاً، إذ لا يمكنها إضاعة الوقت في تهنئة نفسها.

أمامها الكثير لتنفّذه، ولا تعرف كم من الوقت سيتطلب منها ذلك، كما لم تكن متأكدة متى سيستيقظ. قد يستيقظ بعد خمس دقائق أو خمس ساعاتٍ. عندما زارت الطبيب طلباً لهذه الأقراص، وهي تختلق أعمالاً كثيرة منعتها من النوم، وسببت لها إرهاقاً شديداً، حذّرها من أنها قد

تستيقظ مجدداً خلال الليل. وفي هذه الحالة، يجدر بها ألاّ تتناول قرصاً آخر، نظراً لقوة مفعول الحبوب، وعوارضها الجانبية الخطيرة.

تصنعت كلير الهلع وسألته: «وماذا لو نسيت، وابتلعت قرصاً إضافياً، أيعدّ هذا خطيراً؟».

فأجابها: «في الواقع، يمكنك مضاعفة الجرعة من دون أي نتائج سلبية في المرة الأولى، على ألا تمسي هذه عادةً. المشكلة، أنّ الناس اعتادوا هذه الأقراص. وهم يستيقظون ليلاً، وينسون كم قرصاً تناولوا، فيتناولون واحداً إضافياً! لذا، سيكون من الأفضل لو أبعدت هذه الأقراص عن سريرك. وأعيديها إلى خزانة الأدوية ما إن تأخذي جرعةً قبل النوم».

عبست كلير، وهي تنظر إلى وجه دنزل المستغرق في النوم. لم تكن تريد أن تسبب له أي أذى، ولو كان يهدد سعادة أختها.

ولما أصغت إلى تنفسه المنتظم، بدا لها طبيعياً، فقررت أن تباشر العمل. خلعت عنه أولاً ذلك الرداء الأسود من الساتان، الذي أعاقها كماه عن تقييد معصميه. ولم يكن من السهل عليها، أن تتعامل مع جسده الهامد، فاضطرت إلى الركوع بجانبه قرب السرير. حاولت أن ترفعه بذراعٍ واحدة، ثم أسندته برجلها، إلى أن نزعت رداءه. ووضعت القيود في معصميه، ثم أقفلتها، بعد أن ثبتت طرفها الآخر في حديد السرير، وأخفتها بحرصٍ وراء كومةٍ من الوسائد... واستنتجت أن دنزل يحب العيش المريح، فالملاءات غالية الثمن، وتناسب طراز الغرفة الجديد.

وحين أنزلته ثانيةً، لاحظت أن أزرار بيجامته قد فكّت بطريقةٍ ما، أثناء صراعها معه. وما بين ثنايا قميصه، لمحت كتفيه المسمرّتين الناعمتين. شعرت بحلقها يجف، وما كان منها إلا أن أشاحت بنظرها بعيداً. فهي لا تريد أن تلاحظ هذه الناحية فيه. مدّت يدها إلى سترته بغضب، ولكن دنزل تحرك في هذه اللحظة، وهو يصدر أنيناً وكأنه على وشك الاستيقاظ.

فوثبت كلير من مكانها، وابتعدت عن السرير وهي تعيره آذاناً صاغياً،

وتراقبه بحذر. لكنه تحرك ببطء، ثم حاول الالتفات إلى الجانب الآخر، لكنه عجز عن ذلك، نظراً إلى أن يديه مقيدتان فوق رأسه.

وإذا بتقطيبةٍ تعلو جبينه، وتدفع كلير إلى حبس أنفاسها، لكنه ما لبث أن سكن ثانيةً. وعادت كلير إلى السرير، فخلعت عنه خفّيه الجلديين، من غير أن تستطيع منع نفسها من تأمل رجليه الكبيرتين والأنيقتين، وأصابع قدميه الرشيقة.

وسرعان ما تأوهت، وأنبت نفسها: «ركزي على ما تفعلينه، وكفي عن النظر إليه!».

أخرجت على عجلٍ حبل غسيلٍ من حقيبتها، وبدأت بتقييد قدميه، فأصبح عاجزاً عن النهوض، مما ناسبها تماماً.

ورأت هاتفاً إلى جانب سريره فأبعدته عن القابس وعن متناول يده. لكنها تركته في الغرفة، لأنه يشكل قسماً أساسياً من خطتها، إذ ستطلب منه الاتصال بلوسي ما أن يستيقظ.

ثم أكملت عملها بتقييده بسلسلةٍ قوية جداً. وبعد أن انتهت، ألقت نظرةً فاحصةً على دنزل، فوجدته ما يزال يغط في النوم. نزلت السلالم على مهلها، وأعدت كوباً قوياً من القهوة، ثم عادت تنتظر في الأعلى.

وفي هذا الوقت، نظرت إلى خزانة الكتب، ووقعت على نسخةٍ لقصص شرلوك هولمز. ومع أنها حاولت القراءة، إلاّ أنه كان من الصعب عليها أن تركز اهتمامها على سرد د. واطسون. وبقيت عيناها تتنقلان من الصفحة إلى جسد الرجل نصف العاري الممدد على السرير.

كان كل نفسٍ يستنشقه يرفع صدره العاري وينزله في حركةٍ مستمرة. كانت الغرفة دافئةً، لكنها أدركت فجأةً أنه قد يشعر بالبرد، فحرارة الجسم تنخفض أثناء النوم. وهكذا، تقدمت منه، ورفعت اللحاف لتغطيه.

وفيما كانت تنحني فوقه، أبصرت أهدابه ترفرف، فتسمرت في مكانها. وخيّل إليها أنها رأت وميضاً بين رموشه يتألق لبرهةٍ قبل أن تسكن

أهدابه مجدداً.

لعله كان يحلم... وراحت تراقب رموشه السوداء، الكثيفة فوق خديه المتوردين، ثم تساءلت في سرها: «ترى بماذا يحلم؟».

واستبد بها القلق خوفاً من أن تعلو حرارته. ولامست يدها خدّيه بلطفٍ، وارتاحت لما تغلغل فيها دفء بشرته من دون أي أثرٍ لحمّى.

كان من الأفضل لها أن تعود إلى كتابها، لكن الرغبة في استراق النظر إليه في غفلةٍ عنه بدت أقوى منها، فجلست على حافة السرير، وامتدت أصابعها بتمهل لتلامس كتفه العارية. وسرعان ما سرت فيها قشعريرة بطيئة، وكأن أشواكاً وخزتها.

ورغم ذلك، حاولت أن تفكّر بمنطقٍ. لكنها لم تكن ترى إلا جسمه الرفيع، وقد زادته يداه الممتدتان فوق رأسه طولاً. فتذكرت كيف طال طيفهُ في حلمها ليلة عيد الميلاد، ثم أغمضت عينيها، وتنهدت بتأثيرٍ من الذكرى. وامتدت أطراف أصابعها حتى وصلت إلى وجهه. بدت لها ذقنه وكأنها لم تحلق منذ مدة، وكأنها طيف أسود على بشرته.

وجف حلقها، فبللت شفتيها بعصبية، ثم ابتلعت ريقها، وقد علا الاحمرار وجنتيها، وارتفع تنفسها بصوتٍ مسموع.

كانت تتحرق شوقاً إلى ضمه والتوت معدتها في شعورٍ جعل أوصالها ترتعد خوفاً. فبقيت عيناها لا تفارقانه، وهي تعرف أنه لا يشعر بارتجافها، ولن يدرك شيئاً عنه.

وفي هذه اللحظة، تقلب وجهه على الوسادة. فحدقت في عنقه الطويلة القوية، وقد استرخت عضلاته في أثناء رقاده، ثم تذكرت مجدداً ذلك الحلم الذي راودها ليلة الميلاد، فشعرت بالعجز والوهن يستبدان بها.

أما الآن، فهو العاجز والواهن، وهو الواقع تحت رحمتها. مالت إليه بعنف، ودفنت وجهها في عنقه. لكنها ما لبثت أن فكّرت في غباء ما أقدمت عليه، بل في جنونه. ماذا تفعل بحق السماء؟ ماذا لو استيقظ ورآها على هذه

الحال؟ ماذا تراه سيظن حينها؟ وسرعان ما جلست مجدداً، فإذا بدبوسٍ من اللؤلؤ ينفك من سترتها، ويخدش صدره العاري، راسماً قطرة دمٍ صغيرة عليه.

أغلقت كلير الدبوس، وهي تحدقَ في نقطة الدم على بشرته. ومع أنه خدش سطحي، إلا أن منظر دمه سحرها، فأغمضت عينيها، تسترجع حلمها الجميل.

وبعد دقيقةٍ، فتحت عينيها، ثم رفعت اللحاف فوقه، وتوجهت إلى كرسيها، وهي تجاهد لتركز على كتابها. وبعد حين، غرقت في سبات، لم تستطع مقاومته رغم القهوة المركزة. فمال رأسها على ذراع المقعد الجلدي، وسقط الكتاب أرضاً من غير أن يزعجها.

أما ما أيقظها، فصوت الرجل على السرير، لا بل أنينه وحركته ومن ثم صيحة التعجب التي صدرت عنه. أفاقت كلير، وقد فقدت حس الزمان والمكان. ولثانيةٍ، ظلت عاجزة عن تذكر مكانها، وما يجري من حولها. وما إن تذكرت، حتى التفتت إلى السرير.

كانت عينا دنزل مفتوحتين تماماً، فيما جسده يصارع للنهوض، فيشدّ على القيود، ويرفس قدميه المكبلتين بعجز: «ما هذا بحق الجحيم؟».

***

٦ ـ ليلة العقاب

وعندما نهضت كلير من مكانها، التفت دنزل إليها بحدةٍ. فلاحظت المفاجأة في عينيه الرماديتين اللتين لم تتسعا إلا لتضيقا مجدّداً.

لوّح اللون وجهها تحت وطأة نظرته، ثم تمتمت: «أنا آسفة».

ـ هل أنت من فعل هذا بي؟

وتلمست في صوته شكاً استطاعت أن تفهم سببه.

ـ بحق الجحيم، كيف... بماذا ضربتني؟

ـ لقد دسست حبوباً منومة في شرابك.

حدّق فيها بمزيج من الثبات والعبوس: «ماذا؟ إن كنت تعتبرين ذلك مزاحاً، فأنا لا أجده مضحكاً البتة».

وعاد يشد بقوةٍ على معصميه الحبيسين، مضيفاً: «فكّي هذه الأشياء اللعينة عني!».

فدنت من السرير، وهي مطمئنةٌ إلى أنه لن يمسك بها، ثم شرعت تشرح له بصوتٍ أجش وكلماتٍ سريعة.

ـ أنا آسفة لأنني استخدمت هذه الطريقة، لكن لم يكن بوسعي التفكير في طريقةٍ أخرى. وكان عليّ أن أوقفك عند حدّك، فلن أدعك تدمر حياة أختي. في الغد، سأبعد لوسي، وأدفعها إلى اللّحاق بخطيبها في أفريقيا. أما لو خضعت لتجربة الفيلم، ونالت دوراً صغيراً في فيلمك المقبل، فستفسخ خطوبتها بمايك. وأنا أعلم أنها سترتكب خطأً فظيعاً، فلوسي تحبه، ولكنها

www.elromancia.com

لن تعود إلى رشدها إلا بعد فوات الأوان. لذا عليّ أن أمنعها من التقدم لتجربة الفيلم غداً. ولم أستطع التفكير إلا في طريقةٍ واحدة، وهي منعك من اصطحابها. وبما أنني أعرف أنك لن تستمع إلى المنطق إن حاولت أن أقنعك، لذا...

ثم توقفت، وقد منعتها أنفاسها المخنوقة من متابعة جملتها، فتمتم دنزل من خلال أسنانه المطبقة: «يا إلهي، أنت مجنونةٌ تماماً!».

وبدأ يناضل مجدّداً، وهو يجذب قيوده بعنف، ويحاول أن يقطع الحبل الذي يكبل رجليه معاً.

فقالت له كلير: «أنت تضيّع وقتك وطاقتك سدى».

عندها، التفت إليها، وحملق فيها فيما التوت شفتاه كذئبٍ هائج، وصرخ: «اللعنة عليك، فكي عني هذه!».

فهزت رأسها بعنادٍ: «كلا، وإن بقيت تصارع هذه القيود، فلن تؤذي إلا نفسك».

أخذ نفساً عميقاً وكأنه على وشك الانفجار وقال: «إفتحي القفل إذاً!».

وثارت أعصابه لمّا سمع الصرير المزعج في صوته. ورغم أنه مقيّدٌ وعاجزٌ بهذا الشكل، بدا قادراً على إثارة الرعب فيها. لكن من الضروري ألا يلاحظ أنه يخيفها، لذا، جاهدت لتحافظ على هدوء وجهها وجموده.

أما هو، فاستلقى مجدداً وهو يتنفس بخشونة، ويراقبها وقد بدا مطرقاً، مفكّراً وما لبث أن حاول مقاربةً مختلفة. ابتسم لها ببطء، وقد تبدلت ملامح وجهه، واتسمت نبرة صوته بالنعومة والمنطق والسحر المتملق.

ـ حسناً، لقد فزتِ يا كلير. لن أُخضع لوسي لأي تجربة في الغد، أعدك بذلك. هل أنت راضية؟ والآن، فكي هذه القيود.

فهزت رأسها، لترى ذلك المنطق اللطيف يتلاشى من وجهه، وبريقاً عنيفاً يستقر في عينيه.

ـ حين أتخلص من هذه، ستتمنّين لو أنك لم تولدي قط.

فابتلعت ريقها. في الواقع، كانت تعرف أنه ينطق بالحقيقة، لكن عليها ألا تفكّر في ذلك الآن، بل ستتركه إلى وقتٍ لاحق. وهي لا تشك في أن القلق سيتملكها حينها.

ولمّا هدأ دنزل مجدداً، وراح يرمقها مقطب الجبين، أعلنت ببساطة: «أريدك أن تتحدث إلى لوسي».

بدا وكأنه مستعد لتصديق أي شيء الآن وسألها: «أهي هنا أيضاً؟».

ـ بالطبع لا.

وحانت منها التفاتةٌ إلى ساعتها، التي أشارت إلى الحادية عشرة والنصف. لا بد أن لوسي عادت من السينما، وفي طريقها إلى السرير، والوقت ملائم للاتصال بها الآن.

ووصلت الهاتف بالقابس من جديد، قبل أن تواجهه والسماعة في يدها: «أولاً، عليك أن تعدني بأن تخبرها بما أقوله لك تماماً، من دون أي كلمةٍ إضافية».

فتساءل وعلى وجهه تعبير قلقٍ غامض: «ولماذا أفعل هذا؟».

ـ لأنك لن تتخلص من هذه القيود حتى تقوم بهذا الاتصال.

ضحك، لكن عينيه لم تعكسا أيّ مرح: «لا يمكن أن تكوني جادة!».

ـ بل أعني كل كلمة أقولها. فإما أن توافق على إجراء هذا الاتصال، وإمّا أن أذهب وأتركك على هذه الحال طيلة الليل.

فتبدّل مزاجه ثانيةً، ثم زجر بغضبٍ شديد: «قد تعتبرين الأمر مزاحاً، لكنه ليس مضحكاً. ولن يجد القانون ذلك مضحكاً بدوره. أتدركين عقوبة جريمةٍ كهذه؟ ستحاكمين بتهمة الاعتداء والاحتجاز القسري. وقد تسجنين مدة طويلة جداً. وصدقيني لن تحبي حياة السجن كثيراً، فهي غير سارةٍ أو مريحة، لا سيّما لفتاةٍ مثلك».

وسرعان ما سرت قشعريرةٌ في بدنها، لكنها قرّرت ألا تتراجع. فقد

فات أوان القلق عمّا قد يحدث لاحقاً، حين يتحرّر. لذلك، ستمضي قدماً في خطتها، خاصةً أنها أنجزت منها ما يمنعها من الاستسلام.

قالت ببرودةٍ: «لا أظنك سترغب في إخبار الشرطة أن امرأةً أقدمت على تقييدك إلى السرير. قد يسخر المسؤولون منك».

فومضت عيناه، ثم رأت أسنانه تطبق وكأنه يريد أن يقطع رأسها.

وما لبثت أن أضافت، وهي تهزّ كتفيها استخفافاً: «وحدّث عن الدعايات التي ستنتشر ما إن يسمع الناس بالقصة، وسيقبل الصحفيون إلى البلدة سعياً وراء القصة، وتتحدث الجرائد عنها بالصفحات، يوماً بعد يوم. باستطاعتي أن أتصور العناوين منذ الآن. وسيحب الناس القصة، لكن ماذا عنك أنت؟ يمكنني أن أتخيّل نوع الدعابات التي سيطلقونها. فكّر في الأمر. صحيحٌ أنني قد أزّج في السجن، لكنك ستمسي محط سخرية الجميع».

رأته يستغرق في التفكير، وكأن وجهه ساحة معركةٍ. بعد ذلك، نظر إليها وكأنه يرغب في قتلها.

فتريثت لثانيةٍ، ثم أضافت:

ـ سأرحل بعد دقائق، إن لم تجرِ هذا الاتصال. لذا، اتخذ قرارك.

جمد لبرهةٍ وهو يرمقها، ثم تمتم بجفاء: «ماذا تريدين مني أن أقول لها؟».

عندئذ، خالجها شعورٌ مزعجٌ بالارتياح. ما أن يتصل بأختها حتى تسير خطتها في مسارها السليم.

ـ أريدك أن تخبر لوسي أنك آسف لأن تجربة الفيلم قد ألغيت، وعليك الرحيل، وأنت غير متأكد من موعد رجوعك.

فتشدق في كلامه، وهو يرفع حاجبيه الأسودين بتساؤل: «وماذا يمنعني من إجراء اتصالٍ آخر ما أن تحرّريني؟».

ـ حينها، ستكون لوسي في طريقها إلى المطار.

رأته يعاود التفكير في المسألة: «لكنكِ قلت إنك ستفكين هذه القيود، ما إن أتصل بأختك».

ـ سأفعل، لكنني لن أتركك هنا وحدك، ولن تجري المزيد من الاتصالات.

ولمحت وميضاً في عينيه وهو يسألها: «أتنوين أن تلازميني الليل بطوله؟».

لم تحبذ تلك النظرة التي رمقها بها، بل لم تعجب بذلك التعبير على وجهه. لكنها تظاهرت بعدم الفهم، وأجابت بسطحية: «معظمه، نعم... حسناً، أستجري هذا الاتصال، أم لا؟».

فمنحها ابتسامةً ساخرةً وأجاب: «حسناً».

شرعت تقول له: «أخبرها فحسب...».

فقاطعها: «أعرف ما تريدينني أن أخبرها».

ـ لا تضف أي كلمةٍ أو تنقص، وإلا قطعت الخط قبل أن تحاول.

ومع أنه لم يجب، لكن ملامح وجهه عكست الإجابة الشافية.

بعدئذٍ، طلبت كلير الرقم، وانتظرت حتى ارتفع صوت لوسي وهو يقول بتردد: «آلو؟».

فرفعت السماعة إلى فم دنزل، وهي على استعدادٍ لخطفها إن لم يلتزم بما أرادته. لكنها سرّت لمّا سمعت صوته عادياً، خشناً: «لوسي؟ أنا دنزل. آسفٌ إن أزعجتك في هذه الساعة المتأخرة. لكن عليّ الرحيل لمدّة وأخشى أن تجربة الفيلم قد ألغيت».

سمعت لوسي تغمغم، وتخيلت شعور أختها في هذه اللحظة، ثم انحنت لسماع كلماتها، فإذا بشعرها الحريري الفاتح يلامس وجه دنزل، أحسّت بعدها بتيار كهربائي دفعها إلى الابتعاد بسرعة، فيما عيناه الرماديتان لا تفارقانها. لكنه لن يعرف أن هذا الاحتكاك البسيط جعل قلبها يدق كمطرقة بين أضلعها، ونبضها يتسارع حتى يفوق كل تصور...

www.elromancia.com

وبينما هي لا تزال تقرّب السماعة من فمه، تابع كلامه: «لوسي، لا أملك أدنى فكرة متى أتفرغ لرؤيتك ثانية».

وفي هذا الوقت، ظل نظره عالقاً بوجه كلير، والسخرية تملأ عينيه، وهو يضيف: «في هذه الأوقات، أشعر أنني مقيدٌ، وأنني لست سيد نفسي».

فاستشاطت كلير غضباً، وهي تسمع المعنى المبطن، وترى فمه يلتوي بتسليةٍ لم تشاركه إياها.

استرجعت السماعة بسرعة، وأصغت إلى لوسي وهي تقول بصوتٍ بالٍ: «دنزل... ولكن، ماذا عن الفيلم؟ ألن تصوره؟ ظننت أنك متأكدٌ من أنني أناسب هذا الدور. ألا يمكنك أن تجري التجربة لاحقاً؟ أم أنك وجدت ممثلةً أخرى؟ أهذا هو السبب؟».

وسمع دنزل ذلك بدوره، فالتفت إلى كلير. ولمّا لم تعجبها الطريقة التي رمقها بها، همست: «قل لها وداعاً».

بعدها، قربت السماعة منه من جديد فتمتم دنزل بلطفٍ غامر: «أخشى أنني مجبرٌ على توديعك الآن يا لوسي. أنا آسف».

وبعد أن أعادت كلير السماعة إلى مكانها، استقامت متنهدة، ثم نزعت الهاتف من قابسه مجدداً.

ـ عليّ أن أعود إلى المنزل الآن، وأقنع لوسي بأن تلحق بمايك غداً.

فتصلب قبل أن يهتف: «لقد وعدتني أن تفكّي هذه القيود! ففكيها... هذا الإحساس بالعجز يقودني إلى الجنون».

ابتسمت كلير ابتسامةً باردةً ساخرة وقالت: «أنا سعيدة لأنك أدركت ذلك أخيراً!».

ـ ماذا يفترض أن يعني ذلك؟

ـ الآن فقط، تدرك شعور ضحاياك!

ـ ضحاياي! لقد استعملت هذا التعبير قبلاً، وأنا لا أدرك، إلى الآن،

عما تتحدثين بحق الجحيم».

ـ آه، لا، أنت بالطبع لا تدرك ذلك!

فزمجر: «وكفي عن هذه اللهجة الساخرة! إن كان لديك ما تتهميني به، فتفضلي. لكن دعك من هذه التلميحات المبهمة».

ـ لقد تسببت بمرض هيلين...

ـ هيلين تسببت بمرضها بنفسها! لقد تشاجرت مع زوجها، وتطلقا. لكنها كانت لا تزال مغرمةً به، وتعيسةً لفراقه. وهذا ما سبب مرضها، وليس أنا.

ـ لعلها أحبت بول طيلة ذلك الوقت، لكنها فقدت عقلها من أجلك.. وأخبرتني بنفسها كم شعرت بالعجز. تذكّر أنني رأيتها معك، ورأيت الحالة التي عانتها بسببك.

فأسدل أهدابه، وأخذ يراقبها من خلال رموشٍ سوداء، فيما عيناه تلمعان كما النجوم الفضية في سماءٍ مظلمة.

ـ يبدو أنك تهتمين كثيراً بعلاقاتي مع النساء الأخريات.

تورد وجهها، ونظرت إليه بغضب قائلة: «هيلين صديقتي، ولوسي أختي».

فتشدق في كلامه، مما ضاعف غضبها: «أهي غلطتي إن وجدتني كلاهما جذاباً؟».

ـ لقد أخضعتهما لتأثيرك، وكأنك مصاصٍ دماءٍ عاشق! فتوقفتا عن التفكير بتعقلٍ. وبعد أن تغلبت هيلين على مشاعرها نحوك، أخبرتني كيف شعرت... بالهوس، بل كانت عاجزةً عن التفكير في أيّ شيء آخر، وسعت بعجز إلى فك الأغلال التي تربطها بك.

ثم نظرت إليه فجأةً، وقهقهت، من الغضب الخالص البارد الذي استبد بها.

وما لبثت أن رمته أخيراً بتلك الكلمات: «تماماً كعجزك أنت الآن!».

راقبت ردة الفعل على وجهه، وعرفت أنه لم يحبذ هذه الفكرة. بعدئذٍ، أضافت بصوتٍ خافت تشوبه المرارة: «تماماً كعجزي حين كنت في الطابق السفلي، وتراجعت إلى الجدار، وقلت لي إني سجينتك».

ولم يأتِ حركةً، بل نظر إليها وقد استحوذت على كامل انتباهه، وتمتم بهدوء: «كنت أمزح، وهي مجرد لعبةٍ».

فجلست على حافة السرير وسألته: «لعبة؟ حقاً؟ لقد لمستني ضد إرادتي، أتذكر ذلك؟ هكذا...».

وبتمهل، مررت إصبعها الطويل على جسده، وأحست بالتوتر يتسلل إلى جسده كلّه.

ـ العجز هي الكلمة التي استخدمتها. لقد قلتَ إننا في حربٍ، وإنني سجينةٌ عاجزة. والآن، انظر من هو السجين. كيف تشعر؟

بدا ذاهلاً، حين مرّرت إصبعها برفق على وجهه: «ما الأمر؟ يبدو وكأنك تعتقد أنك كنت تمزح فعلاً في الأسفل. لكني لاحظت أنك استمتعت فعلاً بتلك اللعبة التي لعبتها معي».

واستمرت تتلمس تفاصيل وجهه، من خدّيه، إلى أنفه، فعينيه وحاجبيه.

ـ كنت اللعبة التي تسليت بها، أليس كذلك؟ لقد تجاهلت كل احتجاجاتي، واستغليتني بإحدى ألاعيبك الصبيانية، ولكن، يمكن لشخص آخر أن يشترك في اللعبة.

واستمتعت بإنكاره، وهو لا يصدق ماذا يحدث له! ثم مالت نحوه، فغمر وجهه شعرها الأشقر، قبل أن تهمس في أذنه: «الآن، حان دورك لتكون لعبتي!».

وشعرت أنه يحاول نزع القيود، فضحكت ثم نظرت إلى وجهه الغاضب، وعينيه اللامعتين.

ـ ما بالك؟ ألم تعد تحب اللعب؟

ـ حسناً، لقد استمتعت بوقتك، والآن، أزيلي عني هذه الأشياء اللعينة، فقد اكتفيت.

تمتمت وقد تسلل فيها شعورٌ بالابتهاج والدوار: «لعلك اكتفيت، أما أنا، فلا!».

ثم نظرت إلى عينيه الساحرتين، ولم تشعر بإرادتها تضعف، أو بعقلها يضطرب. لقد خسر كل قوته وهو مقيدٌ على هذا النحو!

فرد بحدة: «كلير! لقد بدأ صبري يفرغ».

ضحكت وسألته: «أيفترض أن يصيبني هذا بالخوف؟».

واستلقت على السرير بجانبه، وقد أسندت رأسها على ذراعها، فيما نظرها يجول على جسده.

ـ يا لها من تجربة مثيرةٍ، أن تحظى المرأة برجلٍ تحت رحمتها. فلطالما جرت الأمور بالعكس بالنسبة لمعظم النساء. ورغم أن الكلام عن المساواة لا ينضب، إلاّ أنّ الرجال يتمتعون بالأفضلية. فهم أضخم، أقوى، ويحوّرون القوانين الاجتماعية لمصلحتهم. ولا يمكنني أن أسير في الشارع ليلاً، وحيدة، من غير أن ينتابني الخوف. ولا أقدم على زيارة رجلٍ في شقته بعد موعدٍ معه، ولا أتواجد معه وحيدةً في مكانٍ ما، إلا إن كنت أعرفه لسنواتٍ وأثق به.

ومن غير وعيٍ منها، امتدت يدها إلى كتفيه العريضتين، حتى أحست بالتوتر يسري فيهما من جرّاء لمستها.

ـ عضلاتك أقوى مما تبدو حين ترتدي ثيابك، كيف تحافظ على قوامك؟ هل بالرياضة؟

فأجاب باختصار: «نعم».

ـ أما أنا فأكتفي بالمشي. وكثيراً ما نمشي حين يكون الطقس جيداً. لكنني لا أتردد إلى الأماكن المنعزلة، ولا أسير إلاّ في وضح النهار. فالمرأة تفتقر إلى الشعور بالأمان الدائم، إن في المنزل، وإن في الخارج.

وبلغت أناملها عنقه فداعبتها بنعومةٍ بإصبعٍ متكاسل وهي تنصت إلى وقع تنفسه باحساسٍ من الانتصار.

وما لبثت أن همست وهي تبتسم: «آه، أيعجبك هذا؟».

بات الآن يراقبها بحدةٍ ثابتة، فيما عيناه القاتمتان تلمعان.

ـ سيعجبني أكثر، لو لم أكن مقيداً كدجاجةٍ في الفرن!

ضحكت، في حين تذمّر على نحوٍ غليظ: «حرريني».

ولم تكلف نفسها عناء الجواب بل تابعت يدها مسيرها وتركت نفسها تشعر بتأثير ملامساتها. أما هو، فأصدر صوتاً أجشّ عميقاً، واستحال لونه أحمر قانٍ.

ابتلع ريقه وقال: «حباً بالله، كلير... أرجوك، إنزعي عني هذه القيود، فأنا لا أستطيع تحمل ذلك... أحتاج إلى احتضانك. ألا ترين ما تفعلينه بي؟».

فأجابت: «لست عمياء».

عندها، أطلق لهاثاً أجش: «كلير...».

واتسعت عيناه الداكنتان وراح يتوسل إليها: «فكّي قيودي... لا يمكنك تركي هكذا... أكاد أفقد عقلي!».

فهمست بصوتٍ أجش: «جيد».

لم تكن تنوي في الأساس أن تضمه أو أن تعانقه لكنها انجرفت في تيارٍ لم تتوقعه. انحنت نحوه تضمه أكثر، فأحست به يرتجف. كان شعرها يتطاير حوله، وبقي يراقبها، فيما شفتاه منفرجتان لا تصدران أي صوتٍ، وكأنه بالكاد يتنفس.

لكن كلير اكتفت بضمه.

ثم هتفت بالنبرة الاعتيادية نفسها: «الجو حارٌ هنا، أليس كذلك؟».

بدا صوته أشبه بالنحيب وهو يجيب: «بدأت أفقد حسّ الدعابة لديّ، يا كلير! انزعي عني هذه الأغلال الآن!».

وشرع يتنفس وكأنه أنهى لتوه سباق ماراتون: «لا أصدق أن هذا يحدث معي... لعلي أحلم... لا يمكن أن تكون هذه الحقيقة... لا شك أنني أحلم».

فقالت كلير قبل أن تعانقه: «ليس حلماً».

عندئذ أطلق لهاثاً حاداً: «يا إلهي! كلير... لماذا تفعلين هذا».

فردت بنعومة: «لم أفعل شيئاً بعد».

ولم تكد تعانقه حتى رأته يغمض عينيه، وقد أفلت منه صوت عميق.

لم يكن هذا الرجل الذي سخر منها، وضايقها طيلة هذه الأشهر، وهو يمارس الألاعيب الذكية المعقدة مع بقية النساء. بل بدا محياه مختلفاً تماماً، لكنه لم يبدُ سعيداً باللعبة، فهو لا يمسك بزمام الأمور.

وتذكرت حلمها عشية الميلاد أمام النار، حين انقض عليها طيفه كخفاش الليل الأسود ليبتلعها. كما استعادت وهنها الشديد، هذا الإحساس الذي لن تتمكن من نسيانه أبداً، وعرفت حينها أن هذا تأثيره على النساء. لكنه لن يسيطر عليها مطلقاً.

هذه المرة، كان هو الضحية. وهذه المرة، هي من يسيطر عليه ويتحكّم به.

سمعته يهمس بصوتٍ مرتجف: «أنت رائعة. وأنا أتوق إلى معانقتك... فدعيني أفعل ذلك يا كلير، ولا تعذبيني».

تمتمت وهي تخفض رأسها ثانية: «أنا لا أعذّبك بل أطهرك».

وسمعت خفقات قلبه تتسارع، وكأنه فقد السيطرة عليها.

ـ ماذا تعنين بتطهيري بحق الجحيم؟ أتمنى لو أفهمك يا كلير. فأنا أتحرق شوقاً إلى ضمك بين ذراعيّ منذ أشهر، ألا تعرفين هذا؟ ولا سبيل لي إلى ذلك الآن وأنت تقيدينني بهذا الشكل.

لكن كلير لم تكن تستمع إليه بل اقتربت منه من جديد لتعانقه.

وبدأ الخوف يساور كلير. ماذا يحدث لها؟ بل ما هذا الشعور؟ ليس

حباً، لا يعقل أن تكون مغرمة به! فهو لا يعجبها حتى.

ما كان ينبغي لها أن تلمسه. فكل لمسة تسعر نار مشاعرها.

في هذه اللحظة شعرت بأنها مستعدةٌ لكره كل امرأةٍ عرفته، وكل امرأةٍ لامسها أو عانقها أو...

وتنازعتها مشاعر الحيرة والدوار، وهي تقرّ أنها لم تخطط لتقييده منذ البداية. فمنذ رأته للمرة الأولى، وهي تخشاه، بل تحذر من سلطته على النساء، وترتعب في السر من خضوعها لها في يوم من الأيام. وهكذا، أمضت الأشهر الماضية وهي تحارب الشعور الذي وَلَده في نفسها، لكنها كادت تجن حين رأته مقيداً إلى السرير وعاجزاً عن الإقدام على أي فعلٍ.

أما الآن فقلبها هو الذي خرج عن سيطرتها وراح يطالب بحبه.

بعد أن أخذت نفساً عميقاً، لامست وجهه بيدها، قبل أن تبتعد عنه.

فما كان منه إلا أن أطلق صرخةً غاضبةً، حادّة وغير مصدقة: «ماذا تفعلين؟ كلير... لا تبتعدي عني أرجوك».

لكنها أشاحت بوجهها، ونهضت عن السرير وهي تكاد تفقد توازنها.

وغمرت وجه دنزل حمرةٌ قانية، وراح يرتجف بعنفٍ، فيما صدره يعلو ويهبط، مع كلّ نفسٍ جبارٍ يتنفسه.

أدارت له كلير ظهرها، فسمعته يقول: «لا يمكنك... لا يمكنك أن تفعلي هذا بي. يا إلهي، أي نوعٍ من النساء أنت؟ كلير؟ هل تصغين إليّ؟ لقد قمت بإغوائي، فما بالك تنسحبين بهدوء الآن؟ إن كان ذلك مزاحاً، فأنا لا أجده مضحكاً».

وتوقف عن الكلام، ثم تنفس بعمقٍ، قبل أن يضيف بمزيجٍ من الغضب والحدة:

ـ أتنتظرين مني توسلاً؟ أتريدين مني أن أتوسل بيأس؟ حسناً؟ ولكنني لن أفعل ذلك.

وتبدّلت نبرة دنزل وهو يقول: «إنها لعبةٌ أخرى، أليس كذلك؟ أنت

تضايقينني، ليس إلا. لكنك لست من القساوة بحيث تزرعين هذه الأحاسيس فيّ، ثم ترحلين»!

أصابها الإجفال، فعضت شفتها قبل أن تدير رأسها. ولم يكن باستطاعتها أن تلومه على غضبه، لذا ركعت بجانب السرير، وشرعت تتلمس المكان بحثاً عن الحزام والسلسلة اللذين خبأتهما هناك.

أما دنزل فراقبها، والشرر يتطاير من عينيه: «ماذا تفعلين الآن؟».

وقفت، وهي تجذب السلسلة نحو السرير، رغم ثقلها والجلبة التي أحدثتها.

وحين رأى ما بيدها، اجتاحه التوتر، وتقلصت عضلات معدته، وتسمر جسده وهو يسأل: «ما هذا بحق الجحيم؟».

لكنها لم تنبس ببنت شفة، بل جلست على حافة السرير، وبدأت تدس الحزام تحته.

ـ كلير، لقد تماديت كثيراً! فكفّي عن هذا، حباً بالله!

وحاول أن يوقفها، فسجن يدها بين الملاءة وجسده، قبل أن يضيف: «لقد أقسمت أنك ستحررينني إن أجريت هذا الإتصال!».

هزّت رأسها وقالت: «بل أقسمتُ أن أنزع القيود، ولم أقل إنني سأحررك. هل تظنني غبية؟ فأنا أعرف أنه لا يمكنني الوثوق بك، لا سيما أنك قد تتصل بلوسي مجدداً، وتخبرها أنني أجبرتك على إلغاء تجربة الفيلم».

ولم يفتها الوميض الذي لمع في عينيه قبل أن يقول: «لكنك إن لازمتني، فلن أتمكن من ذلك، أليس كذلك؟».

فوعدته: «سأعود، ولن أتركك مقيداً بالسلسلة مدة طويلة».

احمرّ وجهه من الغضب، وتصلّب: «بل لن تتركيني مقيداً بها أبداً».

ـ أنا آسفة، ولكن لا خيار أمامي، وإن أردتني أن أفك القيود، وأحلّ الحبل الذي يربط رجليك، فعليك أن تدعني أوثقك بالحزام. أما بشأن السلسلة، فقد أقفلت القفل مرّتين، ولن تتمكن من كسرها، أو فكّها. هذا

من ناحيةٍ، أما من ناحيةٍ أخرى، فقد تأكدت من أن السلسلة توصلك إلى الحمام، تأميناً لراحتك. وما إن تغادر لوسي البلاد، حتى أحررك.

ـ وماذا لو رفضت أن تلحق بخطيبها؟

ـ لن تفعل.

تفحص ملامح وجه كلير المليئة بالعزم، ثم تمتم وقد لوى فمه:

ـ كلا، أعتقد أنها لن تفعل، بما أنك قررت ذلك. يا إلهي، كم أنت قوية، أليس كذلك؟ بل قاسيةٌ كالمسامير، وباردةٌ كالجليد، كنت تنوين منذ البداية أن تعذبيني قبل أن تنسحبي فجأةً.

وتجلّى في صوته غضب مرير: «إن كان من امرأةٍ لا أتحملها، فهي المعذبة الباردة الأعصاب».

فشحب وجه كلير، وقد كرهت النبرة التي استخدمها، لكنها جاهدت لتحافظ على خلو التعابير عن محيّاها. وقرّرت ألا تسعده بكشف الجرح الذي سببه لها.

وتمتم باختصار، وعيناه لا تفارقانها: «أما من تعليق؟».

وبادلته النظرات من دون أي تعبير. ورغم أنها شعرت أنّ الكلام بعيدٌ عن السهولة بأشواطٍ، إلاّ أنها، وبطريقةٍ ما، تمكنت من القول: «لا».

فقست شفتاه، وهو يومىء برأسه، ويضيف: «كما سبق وذكرت، أنت باردة كالجليد، وتفتقرين إلى الانفعال. لقد عانقتني لتثيري غرائزي. تلك كانت نيتك، أليس كذلك؟».

عندئذ، أجابته كلير على نحوٍ فظ: «لا نملك الوقت لهذا».

فرد من بين أسنانه المطبقة: «أنت لا تملكين الوقت، أما أنا، فيبدو أنّ لدي وقت العالم كله. فلن أذهب إلى أي مكان».

ـ اسمع، على لوسي أن تستقل قطاراً إلى مانشستر في السادسة من صباح الغد. كما عليها أن توضّب أغراضها قبل ذلك. وما زال عليّ أن أكلمها، لأنها لا تعلم شيئاً عن هذه الرحلة.

ـ ألن تحتاج إلى تأشيرة دخول؟

حاولت كلير ألا تنظر إليه. فكلما وقعت عيناها عليه، سرت فيها ذبذباتٌ غريبة.

وما لبثت أن قالت بسطحية: «لقد حصلت على واحدةٍ قبل أشهر عدةٍ، وذلك حين سافر مايك إلى هناك، كي تزوره، في حال وفّرت بعض المال».

ـ وماذا عنه؟ متى ستخبرينه بقدومها؟

ـ لقد سبق وفعلت.

فأجاب بسخريةٍ باردة: «أنت تدهشينني. وفيك من السرية ما يفاجئني، إذ لم تطلعي مخلوقاً على ما تخططين له».

عندها رفعت ذقنها، متوردة الوجه وقالت له: «لم أخبره عنك، أو عن تجربة الفيلم. بل اكتفيت بالقول إنها مفاجأةٌ للوسي، وحذرته من أن يذكر الموضوع سلفاً. إنما، كان عليّ أن أعلمه بموعد قدومها، كي يلاقيها في المطار، ويحجز لها غرفةً في فندقٍ قريب».

فعلق بجفاء، وهو يدرسها، كمن يراقب حشرةً تحت عدسة المجهر: «لقد فكّرت في كل شيء، أليس كذلك؟».

ـ بل حاولت ذلك.

وحانت منها التفاتة إلى ساعتها، وقد فرغ صبرها: «والآن، هل ستدعني أوثقك بالحزام، أم لا؟ لأنك، إن لم تفعل، ستبقى مقيد اليدين طيلة الليل».

ـ حسناً، ضعي الحزام اللعين، بأي وسيلة كانت.

ثم رفع جسده، تاركاً إيّاها تدس الحزام حول وركيه.

وأعلنت، من دون أن تنظر إليه: «قبل أن أنزع الأغلال، عليك أن تعدني أنك لن تحاول منعي من الرحيل. فعليّ أن أرى لوسي الليلة، وأتأكد من أنها ستستقل تلك الطائرة».

فتشدق في كلامه: «سأعدك مقابل وعد منك، عديني أنك ستعودين ما

إن تسافر لوسي بالقطار غداً صباحاً».

أومأت برأسها وقالت: «حسناً، أعدك بأن أعود حالما نودع لوسي في المحطة».

ورد: «اتفقنا».

لم تكن متأكدة من أن بإمكانها الوثوق به، إلاّ أنها أخذت نفساً عميقاً، وفكّت الأغلال.

ولما سقطت ذراعاه، أجفل، قبل أن يئن ألماً. وما لبث أن راح يفرك ذراعيه.

ـ يا إلهي، أعاني أكثر التشنجات سوءاً.

لكن كلير لم تنتظر. فرغم وعده، قرّرت ألا تجازف، وما أن نزعت القيود، حتى نهضت وحملت الهاتف معها، ثم اتجهت إلى الباب سريعاً. ومع أنها سمعته جيداً وهو يستقيم، ويتقلب على السرير، إلاّ أنها أيقنت أنها بعيدةٌ عن متناول ذراعيه، فما زال عليه نزع حبل الغسيل عن رجليه المكبلتين. ولا تعد هذه بالمهمة السهلة، لاسيما أنها تكبدت عناءً كبيراً، كي يصعب على أيّ كان فكّ الحبل.

وأخيراً، قالت من فوق كتفها: «سأعود في الصباح، فأخلد إلى النوم».

وتجاهلت العبارات النابية التي تفوه بها دنزل.

وما إن وصلت إلى المنزل، حتى توجهت إلى غرفتها، واستلقت على السرير، من غير أن تبادر إلى تغيير ملابسها. راحت تصغي إلى الأنين المكتوم الذي وصلها من غرفة لوسي، وبعد دقيقةٍ، توجهت إلى هناك، وأدارت زر الكهرباء.

جلست على السرير بجانبها، وتناولت منديلاً من على الطاولة المجاورة، وراحت تمسح دموع أختها برفق.

ـ ما بالك؟ سمعتك تبكين.

فارتعشت شفتاها، ثم انفجرت غاضبة بنبرةٍ لم تعهدها كلير من قبل:

«هل كنت تسترقين السمع مجدداً؟ ألا يمكنني البكاء بسلام في هذا المنزل؟».

وما لبثت أن بدأت تشكو: «آه يا كلير... لقد أُلغيت تجربة الفيلم. وسيرحل ثانيةً، ولن أمثل في أي فيلم بعد ذلك».

فتمتمت كلير بصدق: «لا يفاجئني ذلك».

ثم تناولت فرشاةً من على الطاولة، وبدأت تسرّح شعر أختها الأشعث.

ـ أظن أن تجربة الفيلم حيلةٌ يمارسها على كل النساء اللواتي يطاردهن.

ولما كانت لوسي تحب أن يُسرح لها شعرها، فقد خفف عنها ذلك، وسرعان ما تنهدت: «كنت محقةً بشأنه».

ـ نعم.

عندئذ أخرجت بطاقة السفر من جيبها، وأضافت: «حسناً، يمكنك استعمال هذه إذا أردتِ».

فنظرت إليها لوسي بتعجّب وكأنها تتطلع إلى أرنبٍ أخرجته كلير من قبعةٍ.

ـ ما هذا؟

ـ افتحيها وسترين.

أخذتها لوسي بريب، ثم فتحتها وهي تحاول أن تقرأها: «رحلةٌ إلى أفريقيا! ولكنني لا أفهم، فالرحلة تنطلق عند صباح الغد، غير أن...».

ـ إن لم ترغبي في السفر غداً يمكنك تغيير الموعد، شرط أن تخبريهم بالأمر سلفاً. ولكنني اتصلت بمايك وأعلمته بمجيئك.

ففغرت لوسي فاها، وهي لا تصدق، ثم انهمرت أسئلتها: «اتصلت بمايك؟ أخبرته؟ متى؟ ومتى اشتريت البطاقة؟ بل ما كل هذا؟».

حافظت كلير على هدوئها، وهزت كتفيها بلا مبالاة ثم ابتسمت لها، وقالت: «وما همك؟ عليك اتخاذ قرارك قبل فوات الأوان. فقد حجزت لك في القطار غداً باكراً. كما حجز لك مايك بدوره غرفة في فندقٍ قرب

المدرسة. وتم تدبير كل شيء. ولم يبقَ أمامك إلا تحضير أغراضك وركوب هذا القطار».

حدقت لوسي فيها بثبات وهي تعبس ثم سألتها: «ومتى فعلتِ كل هذا؟».

- منذ يومين تقريباً.

- ولكن... لماذا؟ ولمَ لم تخبريني؟ ماذا يجري هنا؟

- لقد قلت لك إني لم أصدق حكاية تجربة الفيلم قط. وكنت متأكدة من أنها مجرد حيلة.

فعضتْ لوسي على شفتها وقالت: «لا بد أنك تعتبريني غبية».

لكن كلير ابتسمت لها ابتسامةً ملؤها المحبة، وأجابت: «كلا، بل صادفتِ مصاص دماءٍ عاشق، وحسب. وقد سجل هذا الرجل تاريخاً في افتراس النساء التعيسات. فهو يظهر بدايةً تعاطفاً ودعماً ودودين، إلى أنه ينتهي في فراشهن. وما إن ينال مراده، حتى يطير إلى مكانٍ آخر».

فقهقهت لوسي بعصبية، قبل أن تسألها كلير: «أليس هذا ما حدث معك؟ كنت تعيسةً بسبب مايك، إلى أن اقتحم حياتك، بتفهمه، ولطفه، حتى لم يعد بوسعك ألا تحبينه. ومن ثم، حاول جذبك إلى فراشه».

فعلا الاحمرار وجه لوسي: «لم أخبرك بذلك قط!».

لكن كلير ردت بكآبة: «لم يكن من الصعب عليّ أن أتكهن. إذ يمكن للمرء أن يتنبأ بتصرفاته. وهكذا، كنت متأكدة من أنه لا ينوي ضمك إلى فريق الفيلم. وقلقت عليك، بل خشيت أن تكون المسألة بمثابة القشة الأخيرة، بعد مشاكلك مع مايك، لذا، بدأت أعد هذه التدابير. فإن خضعت لتجربة الفيلم فعلاً، أؤجل موعد الرحلة إلى حين، لذا، لم تكن المجازفة كبيرة. كما أنك تحتاجين إلى عطلةٍ يا لوسي، فقد أرهقت نفسك في العمل. ومن هنا، اعتقدت أنك بحاجةٍ لرؤية مايك، ومناقشة بعض المسائل معه، وهي مسائل لا يمكنك مناقشتها عبر الهاتف، أو عن طريق الرسائل،

بل عليك رؤيته، وجهاً لوجه».

وما كان من لوسي إلاّ أن عضّت على شفتها، وهي عاجزةٌ عن التوصل إلى قرار، ثم قالت وقد تشعث شعرها الأشقر، وازدادت ارتباكاً.

- لا أدري ماذا أقول.

- قولي إنك ستذهبين وحسب!

وما لبثت لوسي أن عانقتها وهي تكاد تنتحب: «أنت رائعة! وأنا شاكرةٌ لك جداً يا كلير... ولن أنسى ذلك أبداً...».

- لا أرغب إلا في رؤيتك سعيدة يا لوسي. وأظن أنك ومايك مناسبين لبعضكما، فهو سيسعدك كثيراً. ولم أرد أن تخسريه من أجل ثمن البطاقة فقط. وبما أن الأرباح كانت وافرةً هذه السنة، فيمكنني أن أرسلك. والآن، أتفضلين تحضير حاجياتك، أم ترك هذا إلى الصباح، ومحاولة الخلود إلى النوم؟

فهتفت لوسي: «بل سأحضرها الآن. وباستطاعتي أن أنام في القطار غداً».

وقفزت عن السرير، وقد امتلأت حيويةً وإثارة، ولم يستغرق منها توضيب أغراضها إلاّ نصف ساعة، لا سيما بوجود كلير، التي سرعان ما أجبرتها على نيل قسطٍ من النوم.

ووعدتها وهي تطفىء النور: «سأوقظك في الوقت المناسب صباح الغد».

ثم توجهت إلى غرفتها، واستلقت على السرير بدون أن تبدل ملابسها، وهي تحدق في الظلام. في الواقع، لم تحس بوخز الضمير لأنها أخفت الحقيقة عن لوسي. فلو أنها لم تكذب عليها، لرفضت لوسي أن تركب هذه الطائرة، ولخسرت الرجل الذي آمنت كلير أنه المناسب لأختها.

وهي مقتنعةٌ أيضاً أن لوسي لن تفوّت عليها مستقبلاً مهماً في التمثيل، لو لم تخضع لتجربة الفيلم هذه. صحيح أنها جميلةٌ جداً، وتملك وجهاً مناسباً

للتصوير، ولطالما أقرت كلير أنها تبدو مذهلةً في الصور، لكنها لم تظهر أي موهبةٍ في التمثيل. وقد سبق لها أن مثلت في مسرحياتٍ في المدرسة، لكنها لا تتميز بسحرٍ على المسرح، أو على الأقل، هذا ما لاحظته كلير. أما عن دنزل، فلم يتظاهر مرةً بأنه يؤمن بصفات النجمة فيها، بل لم يعرض عليها هذه التجربة إلا إظهاراً لطيبته. ومع ذلك، كانت كلير متأكدة من أنها لم تخطىء بشأن دوافعه قط، فلقد استخدم عمله كطعم ليغوي لوسي. ولا شك أن هذه الخطة المحكمة قد نجحت مع عشراتٍ من النساء قبلها. لكن، من الواضح أنها فشلت مع لوسي.

كان نظرها مازال موجهاً إلى السقف، فعبست وهي شاحبة الوجه، باردة. لا يجدر بها أن تفكّر فيه. لكن فيمَ تفكّر غيره، ولا شاغل آخر يصرف صورته عن ذهنها؟ وسرعان ما بدأت الصور المزعجة تحتشد في مخيلتها. فلم تستطع أن تصدق الذكرى التي تجتاحها. أحقاً تصرفت هكذا؟ ما الذي أصابها بحق السماء؟ لكن صدقها، وطبيعتها الصريحة، أبيا أن يكذبا. وفي هذا الظلام الموحش، لم تعد تقوى على إخفاء الحقيقة، أو إنكار مشاعرها نحوه. فأغمضت عينيها، وتأوهات الكرب تمزق أحشاءها، وكأنها ابتلعت زجاجاً مكسوراً.

كانت مغرمةً به، إلى حدّ اليأس. لكن، أيعقل أن تكون بمثل هذا الغباء؟

نعتها هذه الليلة بالجنون، وكان محقاً. فمجرد الوقوع في حب رجل مثله، ضربٌ من الجنون. ولماذا تطلّب الأمر منها هذا الوقت كله كي تدرك ماذا يحدث لها؟ وكيف يخذلها العقل الذي لطالما تميزت به، هذه المرة؟

لا شك أن العداء الذي ساد بينهما يوم التقيا أعماها، ولم تدرك أنه كان مجرد غشاء يخفي خلفه خطراً حقيقياً. وفي الليلة الأولى، شغلها القلق على هيلين، فلم تدرك أنها أمام مصاص دماء، سيقدم على أذية هيلين ليرحل بعد ذلك من دون تردد.

وها هي الآن تتساءل، إن كانت تجازف هي الأخرى بالاقتراب منه.

لكنها لطالما كانت باردةً، لا بل امرأة أعمالٍ مميزة واقعية ومتزنة، وقد أقنعت نفسها أنها لن تسمح لأيّ رجلٍ بأن يؤذيها مجدداً، وأن هال، الذي كسر قلبها، قد علمها الحذر من الوقوع في غرام الرجل غير المناسب. وحين استرجعت بعض المشاهد الخاطفة، تساءلت إن كانت لم تدرك منذ النظرة الأولى أن دنزل بلاك سيهدد سلامها الداخلي. ترى، ألم تعرف منذ البداية أن تأثيره سيكون عنيفاً كالزلزال؟ وإلا، لماذا كان الخوف الشديد يستبد بها كلما قابلته؟ ولماذا راودتها عنه كل هذه الأحلام المزعجة؟

لقد نجحت في إنقاذ أختها من مخالبه، لكن، من سينقذها هي؟

***

٧ ـ المواجهة الصعبة

وفي صباح اليوم التالي، وخلف ستارٍ ذهبي خفيف، قادت كلير السيارة إلى كوخها، وهي في حالٍ من الانفعال الشديد.

فكرت في أن الربيع قد حلّ أخيراً! ويبدو أن هذا اليوم سيكون صافياً، من دون أي غيمة في السماء. وإلى جانب الباب الأمامي، تفتحت براعم الزنبق الأزرق، لتكشف عن وريقاتٍ ملتفة، وعبير ذكيّ يدغدغ الأنفاس. توقفت كلير لتتنشق الأريج، وهي تدرك أنها لا تقوم إلا بتأجيل موعد دخولها إلى الكوخ، وصعودها السلالم.

كانت قد ودّعت لوسي عند محطةِ القطار، ثم قادت السيارة إلى الكوخ بتمهل، وهي شاحبة الوجه، خائفة. وأدركت أنه لم يكن بوسعها أن تبقيه مقيداً. لكنها، في الوقت نفسه، امتلأت رعباً وهي تفكر في ما قد يقدم عليه حين يتحرر.

عضت شفتها، وقد استحال وجهها قرمزياً، وهي تتذكر الليلة الماضية.

وما لبثت أن تأوهت بصوتٍ عالٍ: «لماذا أقدمت على ذلك؟ ما الذي أصابني بحق السماء؟».

ولكن، عليها أن تتقبل الحقيقة: إنها مسلوبة الإرادة. فمنذ أن وقعت عيناها على دنزل للمرة الأولى، وهي مسلوبة الإرادة، وكأنها خاضعةٌ،

مهووسةٌ، وقد سيطرت على عقلها صورٌ غريبة، وباتت أحلامها حسيةً. ولو أنها عاشت في العصور الوسطى، لاعتبروا أن الشيطان قد تلبّسها. وفي الواقع، ما من صفةٍ تناسب دنزل أكثر من هذه.

أغمضت عينيها، وقد أسندت وجهها إلى الحائط الحجري. إنني أفقد رشدي، فأنا أكلم نفسي، وأعاني الهلوسات، بل تراودني أغرب الأحلام... فما بالي؟ مما أشكو، عدا وقوعي في حب آخر رجلٍ في العالم قد تفكّر فيه أي امرأةٍ عاقلة؟

صرخت وهي تحدث نفسها مجدداً: «أصمتي!».

فما من فائدةٍ من الجدال، إنما عليها الدخول إلى الكوخ، ومواجهة مصيرها.

وما لبثت أن أدارت المفتاح في القفل، وفتحت الباب. وقفت في الرواق الضيق تطرق السمع.

ما من صوتٍ. أغلقت الباب بهدوء، وبدأت تصعد السلالم على رؤوس أصابعها، وهي تتوقف بين الحين والآخر لتصغي مجدداً. وحين بلغت أعلى الدرج، سمعته يتنفس. لبثت مكانها، ونبضها يخفق في حنجرتها، ثم سجّلت وجود صوتٍ هادئٍ منتظم، فاطمأنت إلى أنه نائم.

بمقدورها إذاً أن تتسلل إلى الداخل، فتلقي إليه بالمفتاح من غير أن توقظه، ثم تفر خارجاً. وخالجها شعورٌ مزعجٌ بالإرتياح، فدفعت باب غرفة النوم بحذرٍ، وبعد ثانيةٍ، خفق قلبها بسرعةٍ، وقد وقع نظرها عليه.

كان مستلقياً على ظهره، وعيناه مغمضتان، فيما أهدابه السوداء منسدلة على وجنتيه الشاحبتين. أما صدره فمكشوفٌ كحال كتفيه، لا سيّما أنّ الغطاء لا يغطي سوى القسم السفلي من جسده. وأضفت الستائر المسدلة على الغرفة ظلالاً غامضة.

لكن، ماذا لو لم يكن نائماً حقاً؟ ماذا لو كان يتظاهر بذلك، كي يوقعها في الشرك؟

وأمعنت النظر فيه. لا. لو أنه يمثل فعلاً، لما فغر فاه على هذا النحو.

وشرعت كلير تتقدم نحوه بحذر، وهي تنوي أن تضع المفتاح فوق المنضدةِ قرب السرير، لتتسلل إلى الخارج مجدداً. لكن، ما إن بلغت منتصف الطريق، حتى تقلّب في مكانه بقلقٍ. فما كان منها إلا أن جمدت في مكانها، وراحت تراقبه وهي مستعدةٌ للهجوم إن استقام على السرير.

لكنه رف جفنيه، وتنفس بسرعةٍ، ثم راح يئن، وهو يلوي رأسه من جانبٍ إلى آخر. إلاّ أنّ كلير لم تسمع إلا دمدماته، وبدت كلماته غامضةً وصوته أجش. وبعدئذٍ، صرخ، بطريقةٍ، زرعت فيها رعباً عظيماً.

لم يسبق لها أن سمعت هذا الخوف، بل هذا الألم في صوت رجلٍ من قبل. وبلغ بها القلق حدّ الهروع إلى سرير، والجلوس بقربه، لتهزه بعنف قائلة: «استيقظ يا دنزل!».

فتغيّرت حركة تنفسه، وصرخ كما المصاب بصدمةٍ، ثم فتح عينيه، ونظر إليها بغرابة، وهو متصلب الجسم. ولدقيقةٍ، أيقنت أنه لا يدرك من هي، إلى أن تلعثم: «ما... ما الأمر...؟ كلير؟».

فردت بارتعاش: «كنت تحلم... لقد انتابك كابوسٌ».

شحب وجهه حتى استحال ناصع البياض، وبدت عيناه شديدتي السواد: «وكيف علمت؟ ماذا قلت؟».

ولمّا رأت ارتباكه، نظرت إليه غير مصدقة، فهذا لا يناسب الرجل الذي تعرفه. غير أنها سارعت تطمئنه بدافعٍ غريزي:

ـ لم تكن تتكلم بل تصرخ.

ومهما كان الحلم الذي راوده، يمكن لكلير أن تجزم أنه يبدو وكأنه رأى الجحيم بعينه. ومع ذلك، بدا كل همه ألا يعرف أحدٌ سبب تلك الكوابيس التي غزت مخيلته.

وتنهد بتثاقل، ثم وضع ذراعه على وجهه، في حركةٍ مسّتها في الصميم. بدا لها أشبه بطفلٍ يحاول أن يختبىء، وقبل أن تدرك ما تقوم به، أزاحت

خصلات شعره الأسود عن جبينه، ثم تمتمت بنعومة: «أنت بخيرٍ الآن. لقد انتهى الكابوس وحلّ الصباح».

وبصوتٍ لم تسمعه قبلاً، ردّ بانزعاج: «بل لن ينتهي أبداً. فتلك هي حال هذه المسائل. تعود إلينا في الأحلام مراراً وتكراراً، حين نكون نياماً، وقد رمينا بأسلحتنا جانباً».

ترددت كلير، ثم قالت بصوتٍ يخالطه الشك والاجفال: «يبدو الأمر خطيراً. هل تريد التحدث عنه؟».

فضحك بصوتٍ خشن وقال: «وماذا تتوقعين؟ سراً رهيباً ومخيفاً؟ كلا يا كلير، ما من سر غريبٍ أو خاص في كوابيسي. مجرد ذكرياتٍ مخيفة عن الطفولة، كان يجبّ أن أدفنها منذ مدةً طويلة».

وغمرها الارتياح لبرهة، لكنها ما لبثت أن تذكرت الأصوات التي أصدرها، فعبست وقد أيقنت أنّ هذا الرعب حقيقيٌ ولا يحتمل.

سألته، وهي تدرك أنها تجتاز طريقاً وعراً، وأن عليها أن تخطو كل خطوةٍ بحذرٍ شديد: «هل كانت طفولتك تعيسة؟».

كانت تعرفه بما فيه الكفاية، لتجزم أنه ليس من الرجال الذين يفصحون عن مشاعرهم الخاصة، وهو يماثلها في ذلك سريةً. ومن هنا، لسعتها المفاجأة، حين اكتشفت للمرة الأولى في حياتها، أنهما يتشابهان بطريقةٍ ما.

وبعد صمتٍ طويل، تذمر دنزل بخشونةٍ: «لقد تخللتها بعض اللحظات التعيسة».

فتنفست بعمق، وقد أجفلها ما شعرت به من سعادةٍ، حين أجابها، ولو بهذا القدر من الكلمات. وسرعان ما أحست كمن أقنع طيراً بريا بالتقاط البذور من يده.

ثم سألته بحذر، إنما بنبرةٍ حاولت ما بوسعها لتبدو عاديةً: «ألم تتفق مع والديك؟».

فقهقه بغضب، ثم أخفض ذراعه، ونظر إليها بعينين رماديتين حادتين: «والدي؟ حين بلغت الثانية من عمري، هربت أمي مع رجلٍ آخر. أما والدي، فلم يعرف ماذا يفعل بي. لذا، رماني لأخته، ثم اختفى بدوره. وكان لأخته أربعة صبيانٍ، بلغوا سن المراهقة. ولو قلت إنهم لم يرغبوا في وجودي، للطفت الحقيقة. فقد كان شغلهم الشاغل أن يحيلوا حياتي جحيماً، لا سيما أن مخيلتهم كانت واسعة».

فأجفلت وسألته: «أتعني أنهم عذّبوك؟».

ـ فكروا في مئاتٍ الوسائل، ليدفعوا صبياً صغيراً إلى حدّ تمني الموت.

واجتاح الرعب قلب كلير، وحدقت فيه بعينين قاتمتين: «لكن... لمَ لم تخبر أحداً... كعمتك، أي أمهم؟ لمَ لم تخبرها؟».

فزادت السخرية ملامح وجهه حدةً:

ـ كانوا أذكياء. فلم يتركوا آثاراً على جسدي، بل في عقلي وحسب. ولم ترغب عمتي فلورا في رؤية ما لا تريد رؤيته. فهي لم تكن تريدني بدورها طبعاً، لا سيما أنها أرملة، ولا تملك الكثير من المال. ولم تستقبلني إلا لأنه واجبها، كما أخبرتني مراتٍ عديدة. إنها امرأة متدينة، تؤمن بالواجبات ولا تكشف عن عواطفها الانسانية، إلا في ما يتعلق بأولادها، ولقد أشرفت على غذائي، وملبسي، كما واظبت على اصطحابي إلى الكنيسة مرةً في الأسبوع. ولم تكن قاسية القلب، بل مجرّد امرأةٍ غير مبالية. كما أن الوضع لم يكن بهذا السوء عند وجود الصبيان في المدرسة، لكن أيام العطل ونهاية الأسبوع كانت مرعبةً في نظري. وقد كرهت عيد الميلاد خاصةً، حيث يضطر الجميع إلى قضاء الوقت في المنزل بسبب حالة الطقس، مما يدفعهم إلى البحث عن وسيلةٍ للتسلية، أي أنا. فيمارسون مداعباتهم السمجة، كما يسمونها، إلى ما لا نهاية. وحين يطلق الناس على هذا المزاح عبارة مداعباتٍ سمجة، فهم يقصدون مداعباتٍ قاسيةً كما تعلمين. فهذا المزاح ينطوي دائماً على القسوة، التي لا تعجب الضحية أبداً.

وهنا، تمتمت كلير بهدوء: «أعرف ماذا تعني. فأنا أكره المداعبات السمجة، حين أكون هدفها. قل لي، أي نوعٍ من المزاح كان؟».

فكشر وقال: «آه، كانت خدعاً تهدف إلى الإغاظة في معظم الأحيان. لكن حين يكون المرء في الرابعة من عمره، فإنه يراها العذاب بعينه. وحين بلغت ميلادي الخامس، غمروا سريري بإبر أشجار الصنوبر، وأجبروني على الاستلقاء فيه، صحيحٌ أنني لم أحتضر، لكنها خدشتني كالقراص. وفي بعض الأحيان، كانوا يدفعونني إلى خزانة تحت السلالم، ويحبسونني فيها. لطالما ارعبني الظلام الدامس الذي يغمر المكان. ومنذ ذلك الحين، وأنا أعاني رهاب الاحتجاز. وقد اعتادوا إخفاء هداياي، أو رميها حتى تتكسر، ثم يتركونني لأتلقى اللوم. وبما أن عمتي تؤمن بالعقاب الصارم، فقد اعتادت ضربي جزاءً على ما يقترفه أولادها. وأذكر لعبةً كانوا يحبونها كثيراً، وتدعى الكعكة المحمصة، وفيها يمسكونني فوق النار، ويتظاهرون بتحميصي. ومع أنهم لم يوقعوني مرةً، لكني لم أكن متأكداً من نيتهم. في الواقع، كانت هذه القسوة العقلية نموذجيةً، أي أنني لم أكن أهتم لما يفعلونه بي، بقدر ما يقلقني ما قد يفعلونه لاحقاً. وكانوا يقدمون على لوي ذراعي، ونتف شعري كلّما رأوني، وكأنهم يرفسون أي كلبٍ».

في تلك الأثناء كانت كلير تحاول مقاومة دموعها، وقد شحب وجهها.

وتملكها مزيجٌ من الغضب والألم وهي تتخيّل صبياً صغيراً يتيم الأم، يحاول أن يتحمّل كل هذه الصعوبات.

وما لبثت أن سألته بصوتٍ أجش: «وكم من الوقت مضى قبل أن تتغلب على كل هذا؟».

فكشر وأجابها: «خيّل إليّ أن الوقت أبدي، لكنها كانت خمس سنواتٍ أو ست تقريباً، على ما أعتقد. وحين بلغت الثامنة، كانوا قد تخرجوا من مدارسهم، وبدؤوا يعملون أو يرتادون الجامعة، وقد ملّوا من التسلي بتعذيبي».

ففكّرت بصوتٍ عالٍ: «الآن فهمت لمَ تكره الميلاد».

عندئذ، رماها بنظرةٍ جانبيةٍ سريعة وسألها: «هل أخبرتك بذلك؟».

ولما أومأت برأسها، ابتسم وهو يلوي فمه: «نعم، في الواقع، كان عيد الميلاد أسوأ يومٍ في السنة، وكم كرهت التعارض بين كلام أمهم عن ضرورة انتشار المحبة بيّن الناس، وبين ما يقترفه أبناؤها بحقّي، بعلمٍ منها أو من دون علم».

فقاطعته وهي جزعة: «وكيف أمكنها أن تفعل هذا؟».

ـ أظنها لم تكن ترغب في الاطلاع على الأمر. ألا تفضّل الأمهات أن يؤمنّ بكمال أولادهن، لا سيما في فترة الميلاد؟ تعلّمت أن أكره الموسم بأكمله، من الخدمات في الكنيسة، إلى ترانيم الميلاد، فبطاقات العيد بكلماتها المحبة، هذا إلى نباتات البهشية والأشرطة اللماعة. وبدا لي أنّ في العالم أجمع عائلاتٍ تجمع شمل أفرادها، وكانت برامج التلفزيون تحفل بأفلام قديمة العهد، فيما الترانيم لا تنقطع مطلقاً من المذياع... ولم يكنّ باستطاعة المرء أن يهرب من هذا الجو أينما ذهب. أما أنا، فقد اعتبرت كل ذلك مجرد حلةٍ زائفة.

ـ أتفهّم لمَ فكرت بهذه الطريقة.

ولم تشأ أن تجادله، فليس الأوان أو المكان مناسبين لتحاول أن تغيّر نظرته إلى الميلاد. وبدلاً من ذلك، قالت بنعومةٍ:

ـ لا عجب أن الكوابيس تنتابك. يبدو أن ما حدث في طفولتك قد ترك فيك أثراً لم يتركه أي حدثٍ آخر في حياتك، أليس كذلك؟

فتذمر، والسخرية في عينيه، ثم قال:

ـ هذا ما يبدو. يا للتفاهة! ألا توافقينني الرأي؟ ها قد مرت عشرون سنة تقريباً على موت عمتي، ولم يقع نظري مرةً على أيٍّ من أبنائها. كان عليّ أن أنسى ما فعلوه بي، ولكن...

وهزّ كتفيه استهجاناً، قبل أن يضيف بسطحية: «من الغرابة أنها ماتت

فجأة في عيد الميلاد، إثر نوبةٍ قلبية. وبما أن أحداً لم يلاحظ قبلاً أنها تعاني من القلب، فقد كانت الصدمة عنيفةً».

وما لبث أن صمت عن الكلام، وهو شاحب الوجه. بعدئذٍ، هتف بصوتٍ خشن: «لا. ليست هذه الحقيقة الكاملة. لم يحدث أن أخبرت أحداً بهذا، ولكن ما جرى بسببي. فأنا من تسبب لها بتلك النوبة القلبية. ففي يوم الميلاد ذاك، كان ابنا عمتي قادمين مع أفراد عائلاتهم، لا سيما بعد أن تزوج اثنان منهم، وأنجبا الأطفال. أما الإثنان الباقيان، فقد استعدا للمجيء، مع صديقتيهما. وكادت عمتي تطير من شدة الفرح. وظلت طيلة الوقت تمدح الميلاد على أنه يومٌ رائعٌ تجتمع فيه العائلة. ثم راحت تثني على أبنائها المحبين. وفجأةً، فقدت أعصابي، وأخبرتها أي نوعٍ من الوحوش القساة هم أبناؤها، وكم أكرههم...».

ثم صمت وهو يتنفس بارهاق، ولاحظت كلير كم ترتعش يداه. فأمسكتهما معاً، وقد أخافتها النظرة على وجهه.

وحدّق في أيديهما المتشابكة، قبل أن يرميها بنظرةٍ مستغربة: «هل تبدين نحوي لطفاً وتعاطفاً يا كلير؟».

فتوردت وجنتاها لما سمعته من تهكمٍ جاف، وحاولت أن تسحب يديها، لو لم يشد قبضته.

ـ أنا لا أحاول أن أهاجمك. لكنني غالباً ما شاركت في هذا المشهد، عادة أكون المستمع الجيد، فأصغي إلى الناس، وهم يفصحون عن مشاكلهم. أما هذه الطريقة، فلا. وغالباً ما يكون هذا جزءٌ من عمل المخرج، لا سيّما حين يعمل مع ممثلين انفعاليين ومزاجيين.

فأشارت كلير بنبرةٍ جافة: «ولا سيّما إن كنّ ممثلاتٍ جميلات...».

التفت إليها وقد التمعت التسلية في نظرته: «يا لها من ملاحظةٍ خبيثة!».

فازداد التورد على وجهها. ترى، هل اكتشف نبرةً غيرةٍ في صوتها؟ لو

فعل، فلن تسامح نفسها أبداً.

وأضاف دنزل بجفاء: «عليّ أن أقرّ أن تجربة الوقوف من الجهة الأخرى للكاميرا جديدةٌ. لكن، لا أريد لذكرياتي المثيرة للشفقة أن تصيبك بالملل، فما من كلام يضجر أكثر من ذكريات إنسانٍ آخر».

فطمأنتهُ بكلماتٍ عنتها فعلاً: «لكنك لا تشعرني بالملل!».

وكشفت ملامح وجهه عن سخريةٍ وهو يقول: «لا أريد إخبارك بالمزيد، حرصاً على صورتي».

ثم توقف وهو يعبس، قبل أن يضيف بلهجةٍ فظة: «أردت أن أؤذي عمتي. لقد تملكني الغضب حين رأيتها بهذه السعادة والرضى عن نفسها وعن صبيانها. وظللت أتذكر أعياد الميلاد التي مرت بي، أنا الذي لطالما بقيت غريباً في ذلك المنزل، أنا الذي لطالما تجاهلوني أو ضايقوني... وشعرت بموجةٍ عاتيةٍ من الغضب، فهتفت بالحقيقة في وجهها، وكنت في تلك المرحلة من المراهقة حين يبدأ المرء بالثورة، وبررت لنفسي قولي الحقيقة. وبالطبع، لم تصدق كلامي، أو على الأقل لم تقره. وبدأت تصرخ بدورها... وفجأةً، أخذت تختنق وهي تقبض على صدرها. وما لبثت أن ترنحت، وتهالكت على كرسيّ. فخفت، وما كان مني إلا أن انحنيت نحوها لأسألها إن كانت بخير. لكنها ضربتني، لتكون هذه ضربتها الأخيرة».

ورفع رأسه مجدداً، ونظر إلى كلير وهو شاحب الوجه، ثم قال:

ـ آخر ما فعلته هو ضربي، ومن ثم، لفظت أنفاسها الأخيرة، من غير أن أحاول مساعدتها.

وشعرت كلير برغبة قوية في إحاطته بذراعيها. ولكن، خوفاً من ذلك، شدت من قبضتها على يديه وعلّقت: «لا بد أنك خفت كثيراً. فقد كنت مجرد مراهقٍ يشعر بالذنب... وأظن أنك لم تدرك ما العمل، أليس كذلك؟».

ـ في الواقع، لم تكن لديّ أدنى فكرة. ففي لحظةٍ، كانت تصدر هذه

الجلبة الرهيبة، لتتوقف عن التنفس في اللحظة التالية.

ونظر إلى كلير بثبات، وعيناه شديدتا السواد، قبل أن يضيف:

ـ لم أحاول أن أساعدها حتى، وهذا ما لا يمكن أن أنساه أبداً. بل وقفت هناك، أحدق فيها، وكأن عقارب الزمن قد توقفت. وأظن أن نفسها الأخير قد أحالني... لا أدري... خدراً. وبدا لي غريباً، أن يكون آخر ما أقدمت عليه هو ضربي.

فتمتمت بنعومة: «كنتَ في حالةٍ من الصدمة».

ـ أظن ذلك. وكل ما أعرفه أنني وقفت، فاغر الفم، ومن ثم، تملكني الرعب الشديد. ولم أحاول أن أقوم بالإسعافات الأولية، بل اكتفيت بالهرولة والاتصال بسيارة إسعاف. وأخيراً، جاء الطبيب، وأخبرني أنها ماتت في الحال، لكني لم أتأكد قط من صحة كلامه.

ـ كنت مجرد طفلٍ يا دنزل! ولا عجب إن انتابك الرعب الشديد.

ـ لست أدري. ربما، إن فعلت شيئاً... كالتنفس الاصطناعي مثلاً، أو محاولة انعاش قلبها مجدداً، لكانت نجت من الموت. لكنني لن أعرف ذلك أبداً.

وشعرت كلير برغبةٍ في البكاء. فعيناه أشبه ببئرٍ عميقة، مظلمةٍ من الألم، وما لبثت أن همست: «وقد لازمك الشعور بالذنب منذ ذلك الوقت».

ابتسم ابتسامة ملتوية وقال: «منذ ذلك اليوم، وأنا أحاول أن أنساها. لكنك محقة، فقد شعرت بالذنب فعلاً. وحريّ بي ذلك. لقد منحتني مأوىً حين لم تكن مضطرةً لذلك، ولم تكن هي من أساء معاملتي، بل أبناؤها. وهم الآن، بالمناسبة، أعضاء في المجتمع يحظون بالاحترام على ما أظن. ولسوء حظي كانوا في تلك المرحلة القاتلة من المراهقة حين ظهرت بينهم. فأنت تعرفين أن المراهقين يمرون بمرحلةٍ يخيفون فيها غيرهم من الأطفال، لمجرد التسلية. ولا يمكنني أن ألوم عمتي على ذلك، كما لا يمكنني أن

أحملها ذنب العواطف التي لم تظهرها لي، لا سيما أن لها أربعة أبناء من لحمها ودمها».

ولبرهةٍ، ساد بينهما الصمت، قبل أن تسأله كلير: «وماذا حدث بعد موت عمتك؟».

- في ذلك الوقت، كان أبي قد مات بدوره، أو ضاع في البحر قبل سنتين، فيما كان يعمل ضمن طاقم سفينةٍ. أظن أنه قفز من على متن السفينة، حين كان ثملاً. لكن موته اعتبر حادثاً، رسمياً.

- وماذا عن والدتك؟

- الله وحده يعرف مكانها. ومن يدري؟ لعلها ميتة أيضاً، ولكن قلّما أهتم. فقد اختفت منذ كنت في الثانية من عمري، ولم يرها أحدٌ أو يسمع عنها منذ ذلك الوقت. وبالطبع، ورث أبناء عمتي كل ممتلكات أمهم، ومن ضمنها المنزل، وبعض الأغراض الخاصة. وباعوا البيت، ثم وزّعوا الأموال في ما بينهم، وإذا بي أجد نفسي من غير مأوى.

وأجفلت كلير وهي تسمع الكآبة في صوته. لقد فسّر لها حديثه الكثير عن شخصيته، وعن كل ما أحست به منذ التقت به. لقد أحست حينها أنه رجلٌ انطوائي، بعيدٌ عن الدفء الإنساني، وكأنه يراقب حياة الآخرين من شبابيك مضيئة، فيما هو واقفٌ في الخارج، في الظلام. نعم، لطالما كان دنزل دخيلاً.

وما لبثت أن سألته برفق: «إذاً، ماذا حدث لك بعدئذٍ؟».

وإذا بوميضٍ من التسليةِ الباردة يلمع في عينيه وهو يجيب:

- صادفني الحظ للمرة الأولى.. على فكرة، لي نظريتي الخاصة في الحياة والكون وكل ما يحيط بنا، وتستطيعين القول إنني أؤمن بالتوازن. فإن عانيت من الحظ السيء مراتٍ عدة، ستدور عجلة الحظ عاجلاً أم أجلاً. يمكنك أن تسمي ذلك ما شئت: العناية الإلهية، أو التعويض، أو غيرها... في يومٍ ما، سيبتسم لك الحظ. كانت حياتي غايةً في التعاسة، إلى

أن أصبحت راشداً تقريباً. ولكن، منذ اليوم الذي قضت فيه عمتي، تبدلت مسيرة حياتي. فقد عرضت عليّ إحدى معلماتي منزلاً حتى بلغت الثامنة عشرة. وكانت مختلفةً جداً عن عمتي. ومع أن لها أطفالاً أيضاً، إلاّ أنهم كبروا جميعاً، وانتقلوا للعيش بعيداً عن المنزل. لذا، تحب هي وزوجها أن يستقبلا الشبان في بيتهما.

وتغيّر وجهه، فأضحى أكثر نعومةً ودفئاً، مما بدّل مظهره كله.

وعلّقت كلير بتردد: «يبدو لي أنهما رائعان».

فابتسم: «فعلاً. لقد أنعم الله على آل داريل بعقلٍ منفتح، وقلبٍ نابض بالحياة. وما زالا على تلك الحال، رغم تجاوزهما السبعين من عمرهما الآن. وقد تبدلت حياتي منذ انتقلت للعيش معهما، فالتحقت بالجامعة، حيث تابعت دورساً في التصوير. ومن هنا، بدأت أهتم بمهنتي العتيدة. وما زلت أزورهما من وقت إلى آخر، ولم أقطع علاقتي بهما أبداً».

- وماذا عن أبناء عمتك؟

فاحتدت ملامح وجهه مجدداً، ثم أجابها بنبرةٍ جافة: «لم أرهم قط».

ثم توقف قليلاً قبل أن يضيف:

- أحاول ألا أفكّر فيهم أيضاً. ولم تعد هذه الكوابيس تنتابني كثيراً، إلا إن كنت مرهقاً، أو أتعرض لضغطٍ، أو لمضايقة. فتعود الأحلام إلى الحياة مجدداً.

وفجأةً، أحست كلير وكأنها أصيبت بصدمةٍ، وسرعان ما شحب وجهها، وشعرت بالسوء، وعرفت أنها لم تدرك الأمر حتى هذه اللحظة، فتمتمت: «لقد... لقد انتابك الكابوس الآن، لأنني قيدتك إلى السرير... هذا هو السبب، أليس كذلك؟».

فهزّ كتفيه بلا مبالاة، ولم يجب لكنه لم يكن مضطراً لذلك. وأدركت كلير ما اقترفته في حقّه، بعد كل هذه الوحشية التي عامله بها أبناء عمته طيلة هذه الأعوام.

فتلعثمت: «أنا آسفة... آسفة جداً. لو عرفت ذلك، لما كنت... لمَ لم تخبرني، بحق السماء، إنك تعاني رهاب الاحتجاز؟ لا شك أن هذه الليلة كانت أشبه بالكابوس بالنسبة لك...».

ثم توقفت عن الكلام، وعضت على شفتها السفلى.

فضحك: «هل كنت لتصدقينني؟».

فتأوهت وأجابت: «لا أظن».

وأخرجت المفتاح من جيب سترتها، ويدها ترتعش. بعد ذلك، أضافت وقد انحبست أنفاسها: «استقم في جلستك وسأفك حزامك».

ولمّا فعل، كشف قميصه الأسود الحريريّ عن صدره. فبدت كلير من الانزعاج، ما تطلب منها دقيقةً لنزع القفل. لكنها نجحت في النهاية، وحررته، ثم تركت الحزام والسلسلة يسقطان أرضاً بجانب السرير.

تمطى، وهو يتنهد ارتياحاً، وقال: «أحمد الله على هذا، لم يكن الوضع مريحاً البتة».

فردت بصوتٍ أجش: «أنا آسفة، لم أقصد أن أؤذيك، بل كنت أحاول فقط...».

عندئذ، أجاب بنبرةٍ قاسية: «أن تحمي أختك مني... أعرف. وأتوقع أن لوسي مضت في سبيلها الآن. متى يحين موعد إقلاع طائرتها؟».

نظرت إليه نظرةً غامضةً مشككة من بين أهدابها. لعلها شعرت بالأسف نحوه، لا سيما بعد أن سمعت عن طفولته الرهيبة، لكنها لم تكن متأكدة من أنها تستطيع الوثوق به. ولن تتفاجأ إن أخذ بثأره منها، لكنها على استعدادٍ للهرب، إن حاول أن يمسك بها. لكنه لم يقدم إلى الآن على أي حركة تهددها. وما لبثت أن قالت: «تعلم أنني قمت بالعمل الصحيح! فهي تحب مايك فعلاً، وستكون سعيدةً معه».

ـ لست بحاجةٍ إلى تبرير نفسك أمامي. فقد تلاعبت بحياة لوسي وليس بحياتي.

ازداد احمرار وجهها، وعاد نفاد صبرها إلى الظهور: «هيّا، أقرّ بالأمر. لم تكن تملك أدنى فرصة في التمثيل، أليس كذلك؟».

هزّ كتفيه من غير اهتمام، ونظر إليها مجدداً وقال بتهكم: «أشك في ذلك، صحيحٌ أنها جميلة، وأنها تبدو فاتنة أمام الكاميرا، لكنني متأكد من أنها لا تستطيع التمثيل، بما إنني سبق وعملت معها في المهرجان. وقد راقبتها وهي تحاول أن تعلّم الأطفال التمثيل، وأخشى أنها تبدو خرقاء تماماً».

ـ أعرف. وأذكر أيام مسرحيات المدرسة، حيث كانت تبدو جميلة، وتتلفظ بنصها بوضوح، لكنها... في الواقع، لم تكن على هذا القدر من البراعة.

فأجاب دنزل: «إنها لا تملك من الخيال ما يمكّنها من أن تصبح ممثلة. فهي سعيدةٌ بنفسها لدرجةٍ تمنعها من البحث عن شخصيةٍ أخرى. والممثلات الماهرات بحاجةٍ إلى هذا. وغالباً ما تجدين أنهن يعانين من شكوك ذاتية، ويحتجن ببأسٍ لنوعٍ من الإطمئنان».

ـ لمَ اقترحت عليها الخضوع لتجربة، إن كنت تدرك عدم كفاءتها؟

ـ لم تكن سعيدة، وقد فرغت مني الأصوات المتعاطفة التي أصدرها حين تتحدث عن مشاكلها. وارتأيت أنه من الممتع لها أن تخضع لهذه التجربة، فقد تشغلها عن الصعوبات التي تعانيها ليوم أو اثنين. وإن كان وجهها مناسباً للتصوير كما أظن، قد تشكل فسيفساء جميلة في مجموعتي.

فردت بهدوء، وقد علا الاحمرار وجهها: «فسيفساء في مجموعتك...».

نظر إليها بجفاء، وقد لاحظ نبرة صوتها، فتوسع شرحاً: «أعني الصورة النهائية التي أحاول أن أركّبها. فلا بد أنك استنتجتِ من الرسوم التخطيطية التي سبق ورأيتها، أني أعتبر كل مسرحيةٍ رسماً معيناً. ولوسي جميلةٌ طبعاً».

كانت كلير تتنفس بسرعة، وقد انقبضت يداها. مما دفعه إلى النظر إليها بتفكير عميق: «ها أنت غاضبةٌ مجدداً!».

ـ كدت تقضي على حياة لوسي، ثم تتحدّث عن قطعةٍ من الفسيفساء، فكيف تتوقع مني ألاّ أغضب؟

وما لبثت أن تذكّرت ما أخبرها به عن طفولته، فتوقفت عن الكلام، وهي تعض شفتها، ثم قالت على نحو نزق: «أظن أنك لا تستطيع إلا أن تتلاعب بحياة الآخرين، فأنت لم تتعلم قط أن تهتم بغيرك من الناس».

ـ لا تبدأي بهذه الثرثرة التحليلية يا كلير! فأنا أهتم فعلاً بغيري من الناس، وإلا لما شعرت بالأسف على حال لوسي. لقد عرفت أنها تعيسة، لأنها قصت عليّ مشاكلها. وبقيت لساعاتٍ متتالية تخبرني عن مايك وزواجها، وكل العناء الذي تتكبده في المدرسة، وعنك وعن عائلتك. أنا اكتفيت بالإصغاء إليها، وهذا كل ما أرادته مني. كل ما أرادته هو أن تتكلم من غير أن تتلقى أوامر.

فردت كلير بمزيج من الحدة والغضب: «أتسخر مني؟».

ـ في الواقع، حاولت أن تديري حياتها، أليس كذلك؟ وقد أثبت ذلك حين أرسلتها على طائرةٍ لتلحق بخطيبها، من غير أن تدرسي الوضع جيداً. كما لجأتِ إلى أساليب ضخمة كي تنفذي وجهة نظرك، حتى ولو كانت تقضي بربطي بسلسلةٍ لساعاتٍ كالكلب.

ـ سبق وقلت إنني آسفة.

فسألها، والظلام في عينيه يدق ناقوس الخطر في رأسها: «وهل أنت آسفةٌ لأنك أفقدتني عقلي أيضاً؟».

وما كان منها إلا أن نهضت عن السرير، وهتفت: «عليّ أن أمضي إلى العمل...».

لكنها لم تتمكن من أن تخطو خطوة واحدة. فقد قبضت يدا دنزل على خصرها، وجذبتاها مجدداً إلى السرير. حاولت أن تخلص نفسها، لكنها لم

تنجح إلا في الميل نحوه بعجز، مما دفعها إلى إطلاق صرخة رعب.

أما دنزل، فأحاطها بذراعه. وصدمها الإحساس الذي تملكها، ما إن شعرت به قربها.

إلاّ أنها ما لبثت أن قالت: «سأقتلك...».

قاطعها وهو ينظر إليها من خلال أهدابٍ تكاد تنسدل، ويبتسم تلك الابتسامة المعذبة: «حقاً؟ عادةً، لا أصدق تهديداً كهذا، إن صدر عن معظم النساء، لكنك امرأة غير عادية. وأظنني عرفت ذلك منذ التقيتك للمرة الأولى. فقد انتابني إحساسٌ غريب حين نظرت إليك. أنت متقدةٌ العاطفة يا كلير، ولطالما ظننت أن الجليد وحده يملأ شرايينك. لكن، يا إلهي، كنت مخطئاً، أليس كذلك؟».

ودنا منها، فراح قلبها يخفق بعنفٍ، حتى عجزت عن التنفس. القرب منه عذابٌ حقيقي. إنها تحبه بشدة وتشعر بأنها تكاد تجن. لكنها لم ترد أيّ علاقة به، وهي تدرك تماماً أنه لا يحبها، بل أثارته ذكرى الليلة الماضية ليس إلا. ومع أنه عانقها بشغف أوهنها، ظلت هذه الأفكار تساورها. وهي تعرف قدرة دنزل على الإغواء، فقد راقبته، وهو يمارس ألاعيبه مع غيرها من النساء... مع هيلين... ومع أختها.

لكنه لن يمارس أي لعبةٍ معها.

فتذمرت، وحاولت أن تناضل أو أن تضربه ليبتعد عنها ويطلق سراحها.

ـ لن أفعل ذلك. والآن، دعني أرحل... فأنا لا أريدك...

لم يتحرك من مكانه، بل أخفض بصره إلى وجهها المتورد وعينيها القلقتين، وفمها المرتجف، قبل أن يهمس: «كاذبة. هل تظنين أنني عاجزٌ عن اكتشاف ما يجري في داخلك؟ هل تظنين أنني نسيت كيف عذبتني الليلة الماضية؟».

ثم أمسك بيدها وجذبها نحوه، وسجنها بين ذراعيه، وراح يستمع إلى

وقع تنفسها العنيف، ويراقب التوهج القرمزي على وجهها.

- لا تفعل!

وسألها بصوتٍ أجش أجفلها: «هل تعتقدين فعلاً أن بإمكانك دفعي إلى حد الجنون، ثم الاكتفاء بالرحيل، وتركي طيلة الليل أسير الإحباط؟».

- لم... لم أقصد... أن أثيرك... بل لم أقصد أن ألمسك على الإطلاق...

- لكنك فعلتِ يا كلير، سواء إدعيتِ بأنك تقصدين ذلك أم لا!

- توقف عن الحديث عن الأمس! لقد فقدت عقلي، وأصبت بقليل من الجنون لكني لم أقصد شيئاً... ولن يتكرر ذلك أبداً، لذا دعني وشأني فعليّ أن أمضي إلى عملي، وعليّ أن أدير وكالتي. وإن لم أفتح بابها، فستقلق عائلتي وتبدأ بالبحث عني. ولا شك في أنهم سيأتون إلى هنا!

تحرك دنزل وكأنه سينهض. فما كان منها إلا أن انتظرت بترقب، وهي ترجو أن يكون متعقلاً، أملت أن تسنح لها الفرصة للهروب.

لكنه اكتفى بمد يده إلى الوسادة، وهو يتمتم: «ليس بعد. ولعلهم لن يبدؤوا بالبحث عنك قبل هذا المساء. وما زالت أمامنا ساعاتٌ قبل أن نتوقع تدخل ما».

انفجرت حانقة، وهي تحاول أن تضربه بذراعٍ واحدة: «لن أدعك تلمسني!».

فإذا به يمسك بذراعها الأخرى، ويلويها إلى ما فوق رأسها.

وبعد ثانيةٍ، تناهى إليها صوت معدني، ثم طقطقةٌ عالية، وما لبثت أن أحست ببرودةٍ حول ذراعها. فحملقت فيه كأنها غير مصدقة. ولم تنجلِ أمامها الحقيقة إلا بعد دقيقة.

لقد قيدها بمعصمه!

***

٨ - من الأقوى؟

لبرهةٍ، نزل الرعب في قلب كلير، وما لبثت أن استبدت بها ردة فعلٍ تماثل الصاروخ اندفاعاً. فصرخت في وجهه: «انزع هذه عني!».

قهقه وسألها: «ترى، أين سمعت هذه الجملة قبلاً؟».

حدقت فيه، وقد استحال وجهها قرمزياً: «هذه الحالة مختلفة، فقد شرحت لك لماذا اضطررت إلى... آه، لا تتصرف بهذه الحماقة، فردّ الضربة بضربةٍ عمل سخيف. أعطني المفتاح قبل أن أفقد أعصابي».

وعوضاً من أن ينفذ طلبها، رفع المفتاح أمام عينيها، وهو يبتسم، فيما فاضت عيناه الرماديتان بوميضٍ من السخرية. ولما مدت يدها لتتسلمه، رمى به إلى أقصى الغرفة. فارتطم بالباب، ثم ارتدّ عنه، وانزلق تحت الأدراج قرب الحائط.

فانتفضت كلير من الغيظ، ثم أطلقت صرخةً عكست غضبها الشديد: «آه، أنت رجلٌ غبيٌّ».

حاولت أن تقفز عن السرير، عساها تبلغ المفتاح، لكنّ دنزل كان أشبه بجبلٍ لا يتحرك فلا هي تستطيع أن تنهض من دونه، ولا بمقدورها أن تحركه. أما هو، فبقي مستلقياً، يحدق فيها برقة، وهي تشدّ بيدها بعيداً عنه بلا جدوى.

وأخيراً نصحها: «ستؤذين نفسك، إن استمريت في ذلك».

- آه، أصمت!

ـ كما أنك لن تصلي إلى أي مكان، من دوني على أيّ حال. وبما إنه لا نية لي في التحرك، وبما إنني سألازم مكاني هذا، فستبقين هنا أيضاً.

وما كان من كلير إلاّ أن جلست على حافة السرير، بمزيج من الغيظ واللهاث، وأدارت له ظهرها، وهي تحاول أن تفكّر في ما يمكنها أن تفعله. كان عليها أن تتوقع تصرفاً كهذا. فكيف بلغ بها طيشها حد ترك القيود في متناول يده، هذا عدا عن ذكر المفاتيح؟

كانت تتوق فعلاً إلى الهروب ليلة أمس، لدرجة أنها اندفعت في تصرفاتها من دون تفكير. ومن الخطر ألا يقوم المرء بدراسة أي خطة من جوانبها كافة، لا سيما مع رجلٍ كدنزل. فمن المؤكد أنه سيستغل كل خطأ ترتكبه، أو كل ثغرة تنساها.

وبدأت يد دنزل تدنيها منه، وتبعث الارتعاش فيها.

ـ لا تفعل ذلك!

وما كان منه إلاّ أن جذب القيد فجأة، ففقدت توازنها. ولمّا انطرحت إلى الخلف بعجز، سجن دنزل خصرها في ذراعه الطليقة.

فأطلقت كلير صرخة احتجاج ماتت فيها الكلمات، ثم رفعت رأسها وقد اتسعت عيناها بتأثير الصدمة، ونظرت إلى الوجه المنحني فوقها.

وما لبث أن تمتم بنعومة: «لا تقولي إنك خائفة. فأنت لا تخافين يا كلير! المرأة التي تلاعبت بي كما فعلتِ الليلة الماضية لا تخاف. صحيحٌ أنني قلت إن أختك لا تستطيع التمثيل، أما أنت، فتجيدينه بحق السماء! بل أنا عاجزٌ عن تعداد الأدوار التي مثلتها أمامي! من المعبودة الباردة، إلى امرأة الأعمال القوية، فالإبنة والأخت المحبة، ومدبرة المنزل الماهرة... أما، ليلة الأمس...».

ثم توقف عن الكلام ليرمقها بنظرة جليدية ساخرة: «ما هو الدور الذي كنت تمثلينه ليلة أمس على وجه التحديد يا كلير؟».

فابتلعت ريقها.

وهنا ابتسم مجدداً، بطريقةٍ جمّدت الدم في أوصالها.

ـ أم أنك لم تكوني تمثلين؟

وكادت عيناه الرماديتان تختفيان وراء رموشه في وميضٍ زرع فيها الرعب.

ولمّا خيّل إليها أنها ترى طريقاً للخلاص، قالت بوحيٍ فجائي: «بالطبع كنت أمثل! هذا ما كنت أفعله بالضبط، كنت...».

وجاهدت لتفكّر في تفسيرٍ مقبولٍ، ثم أردفت أخيراً، من غير أن تكذب تماماً: «كنت ألقنك درساً».

حينها، أقنعت نفسها بأنها تظهر له شعور المرء بالحجز.

وتابعت وهي ترمقه بنظرةٍ مباشرةٍ باردة: «لم تسنح هذه الفرصة لضحاياك. لكن، آن الأوان ليعلّمك أحدٌ ما كيف يشعر المرء حين يتعرض للاستغلال والهجر!».

كان قد توقف عن الابتسام، واجتاح الغضب وجهه على نحوٍ أفقدها رباطة جأشها، إذ ينذر دنزل بالخطر في غمرة غضبه. وما لبث أن ردّ بحدة:

ـ سبق وأخبرتك أنني لم أستغل أحداً! وتوقفي عن التحدث عن ضحاياي، وإلاّ بدوتُ كقاتلٍ محترف!

فبادرت إلى القول: «هيلين...».

ـ لقد شرحت لك قبلاً عن هيلين. فلمَ تفتحين الموضوع نفسه مجدداً؟ حين التقيت بها، كانت تعاني من اليأس بعد طلاقها، فتعلّقت بي، لأنني كنت غريباً لا أعرف زوجها. بل كنت مستمعاً جديداً، إذا شئت القول. وكان بإمكانها أن تلقي بحملها كله عليّ، وهي تدرك تماماً أنني لن أثير الإشاعات، نظراً إلى أنني بالكاد أعرف مخلوقاً في غرينهاوي.

فأجابت بنبرةٍ فاترة: «أصدق كلامك، لكن، إياك أن تخبرني أنك لم تلمسها قط!».

عندئذ، رمقها بنظرة جفاء وقال: «إنها جميلة، وأعجبت فيها في

البداية. لعلي عانقتها مراتٍ عدة، لكن من الصعب أن ترتبطي بامرأةٍ لا تكف عن الحديث عن زوجها، ولم أتخط حدودي مرةً إن كان هذا ما تسألين عنه فعلاً».

لكن كلير لم تصدقه، وسرعان ما سألته بغضب: «هل تعني أنها كذبت عليّ حين أخبرتني أنها مهووسة بك؟».

فهزّ كتفيه بنزق: «لا أدري ماذا أخبرتك. ولا أملك أدنى فكرة عن حقيقة مشاعرها حينها يا كلير. ولذا، لا أستطيع الكلام إلا عن نفسي. فأنا لم أُغرم بهيلين، ولم ألمسها قطُّ».

ولم تملك إلا أن تصدقه، فالسخط المصقول على وجهه بدا غايةً في الإقناع، لا سيما حين أغلق عينيه بتنهد وأضاف: «هل تريدين مني لائحةً مفصلة بكل النساء اللواتي مررن بحياتي، وبما فعلته بهن؟».

فردّت بحدة: «كلا طبعاً. لكن ما من داعٍ لتتفاجأ، إذا ظننت أنك من النوع المتلاعب، فالأمر لا يقتصر على هيلين وحسب. وماذا عن لوسي، وتلك الممثلة التي لا أعرف اسمها...».

ـ عاشت بيلا حياةً مأساوية، لكن لا شأن لي بهذا. بل على العكس، منحتها الفرصة، غير مرةٍ، لتنتشل نفسها من الهاوية. كما عرضت عليها دوراً في فيلم، أحالها نجمةً كبيرةً منذ الإطلالة الأولى. وجاهدت لأبعدها عن المخدرات، لكن، كيف للمرء أن يساعد أناساً لا يرغبون في تلقي المساعدة؟ كانت بيلا تكره نفسها، وتبغض الحياة، ولطالما تمنت الموت. وبدت لي حياتها محطمةً قبل أن ألتقي بها بوقتٍ طويل.

والتفت إلى كلير بغضب، وأكمل: «أخبرتك بكل هذا من قبل...».

فأومأت برأسها: «أذكر ذلك، لكن...».

ـ لكنك لم تصدقيني؟

كان صوته عميقاً، قاسياً، لا سيما حين تابع: «لا يمكنني أن أجبرك على تصديقي، فعلي أن أتقبل هذا الواقع».

ولمّا صعقها وجهه الغاضب، وضعت يدها على كتفه، بدافعٍ غريزي وقالت: «أنا آسفة... وأصدقك فعلاً».

لكن الغضب لم يتلاشَ عن وجهه: «إذاً، لمَ سألتني مجدداً؟».

فعضت شفتها، وقالت بنبرةٍ تقارب النحيب: «لست أدري... فقد توقفت عن التفكير بمنطق».

عندها، لوى فمه بعبوس وقال: «أتعنين أنك تملكين فكرة ثابتةً عني، وأنني مهما شرحت لك خطأك، ستنظرين إليّ دائماً كأنني نوعٌ من... ماذا دعوتني في المرة الماضية؟ مصاص دماء عاشق؟».

فأجفلت كلير: «نعم، أنا آسفة. وأظنني أفكّر في ذلك منذ التقيتك للمرة الأولى، حين اصطحبتك وهيلين لرؤية البحيرة السوداء. في الواقع، ظننتها في البداية تتعاطى المخدرات، فعيناها بدتا ناعستين، ورغم ذلك، ما انفكتا تلمعان. ومن ثم، أدركت أنها متعلقةٌ بك لا بالمخدرات، واستنتجت أنكما عاشقان. لكن هيلين لم تكن سعيدةً. وعلى مرّ الأشهر المقبلة، ازدادت حالتها سوءاً. وبدا لي أنها تعلّق عليك آمالاً كبيرة، وتزداد شحوباً ونحولاً ووهناً يوماً بعد يوم، إلى أن أغمي عليها في الشارع ذات مرة.

ـ وألقيتِ اللومَ عليّ مباشرةً!

فأجابت وقد احمرّ وجهها: «في الحقيقة، فيمن عساي أفكّر إذاً، وقد أعطتني هيلين نفسها انطباعاً أنها تعيسة بسببك؟».

عندئذ رد دنزل بمرارة: «كمعظم النساء، وجدت صعوبةً في الاعتراف بالحقيقة، وهي أنها تريد استرجاع زوجها. لكنها ظنت أنه لم يعد يحبها، ومنعتها الكبرياء من الإفصاح عن حبها. وقد تذرعت بي، واتخذتني عذراً عاطفياً. فإن سألها أحدٌ لمَ تبدو كالأموات، ألمحت إلى أنها مغرمةٌ بي».

كان فمه قوياً، وكأنه يمسك بزمام انفعاله.

ـ إن كان هناك من تعرض للاستغلال، فهو أنا! وقبل أن تخوضي موضوع أختك، أذكرك أنني لم ألمسها بإصبع قط!

ردت: «ليس حتى الآن، على الأقل».

فأجابها بحدة: «هل تتهمينني فعلاً بملاحقة هذه الدمية الصغيرة الجميلة؟ لا شك في أنك مجنونة، فالمرأة الوحيدة التي ألاحقها منذ جئت إلى غرينهاوي هي أنت!».

وأوشك نفسها على الانقطاع، فحدّقت فيه، وهي تهز وجهها الشاحب، وتقول: «لم تكن تلاحقني!».

ـ حاولت ذلك، لكن كلّما ظهرتُ، صفّقتِ البابَ في وجهي. ولمدةٍ، ظللت أرفض الإستسلام، فاتصلت بك، وحضرت إلى مكتبك، وحاولت أن أواعدك. ومن ثم، أخبرتني أنك على علاقةٍ جدية برجلٍ آخر.

أجفلت، ثم تذكرت ما أخبرته به، فتورد وجهها مجدداً وقالت: «آه، أنت تقصد جوني...».

فنظر في عينيها بحدةٍ يقظة:

ـ نعم، جوني بريتشارد. لم أعرف من تعنين في البداية. وصادف أن سألت لوسي عن هوية صديقك جوني، فأخبرتني مباشرةً أنك تخرجين مع محاميّ، ثم ضحكت وقالت إنك تبدين مجنونةً به، رغم أنه مملٌ جداً. وبالطبع، وافقتها الرأي، بما أنني كنت أعرف بريتشارد. ولكن ما من معيارٍ محدد للذوق، ومن النساء من يحب أغرب الرجال.

دافعت كلير عنه بحدة: «لجوني مميزاتٌ كثيرة، فهو ساحرٌ، وعاطفيٌ ووسيم جداً...».

ثم أضافت: «كما أنه محبٌ للحيوانات ولطيفٌ مع أمه».

ـ نعم، أعرف، فقد قلت إنني التقيت به، وبأمه أيضاً. وهي بالمناسبة قبيحة، وأشك في أنها قد تقبل بك.

فما كان من كلير إلا أن رفعت ذقنها بانتصار: «في الواقع، إنها تحبني. وقد عرفتني طيلة حياتي، لكنها لم تحب زوجة جوني السابقة، وأظن أنها ساعدت على فسخ علاقتهما. أما أنا، فلطالما أحبتني دائماً. كما إنني أحب

جوني أيضاً».

لكنه علّق ببرودة: «لكنك كذبت حين أخبرتني أن العلاقة جادة فاتخذت موقفاً عدوانياً».

ـ ومن قال ذلك؟

ـ أنا!

وما إن أتم كلامه، حتى أمسكت يده الطليقة بذقنها، وأرجعه إلى الوراء، فحاولت كلير أن تتحرر من قبضته، لكنه أمسك بها بإحكام، وهو ينظر إلى عينيها الزرقاوين اللتين اتسعتا إنذاراً بالخطر.

وأضاف بنعومةٍ، فيما الدم الحار يجري في جسدها كله: «ما كنت لتعانقينني كما فعلت الليلة الماضية، لو أنك تحبين رجلاً آخر يا كلير».

ـ لا يمكنك التأكد من ذلك! فقد قلت بنفسك إنني أجيد التمثيل.

ضحك وعلّق: «لكن ما حصل أمس لم يكن تمثيلاً يا كلير».

فهتفت وفي صوتها شيء من اليأس: «أنت لا تعرفني».

ـ بل أعرفك أكثر مما تظنين. فخلال كل تلك الأسابيع، كنت أعمل مع أختك، وأتعلم عنك ما استطعت. بالطبع، غالباً ما تتكلم لوسي عن نفسها، لكن لا يسعها أن تذكر نفسها من دون أن تتطرق إلى عائلتها بمن فيها أنت. وهكذا، عرفت عنك الكثير، من الكتب التي تقرأينها، إلى فطورك المفضّل.

ولمعت عيناه وهو يضيف: «وأخبرتني أيضاً أنك شاهدت أفلامي مراراً تكراراً».

فتوردت بشرتها، وهي ترد: «في الواقع، كنت أشعر بالفضول نحوك، لأنني خفت على... على لوسي. ففكرت في أن أفلامك ستنبئني عن نوعية الرجل الذي فيك، وإلى أي مدى أستطيع الوثوق فيك».

فتشدق في كلامه: «وهل صدق ظنك؟».

ردت بلهجةٍ بعيدة: «تعلّمت الكثير».

وراح يضايقها بنعومةٍ خطفت النبض من قلبها لبرهةٍ: «وماذا تعلّمت؟ وبالحديث عن ذلك، ما رأيك بأفلامي؟ هل استمتعت بها، حينما أعدتِ مشاهدتها؟».

فتلعثمت: «إنها جيدة جداً».

ثم سألها دنزل وأصابعه تتلاعب بخصلات شعرها: «هل كانت حياتك العاطفية مذهلةً في الماضي؟».

فردت وهي لا تستطيع أن تخفي غيرتها: «أتعني كحياتك؟».

وتابعت يده مسيرتها على وجهها برقة، وهو يتمتم: «لطالما احتلت حياتي العاطفية المرتبة الثانية بعد عملي، يا كلير. لم أكن أملك الوقت الكافي لألتقي أحداً خارج نطاق عملي. وحين أقوم بإخراج فيلم، ألتقي عادة بإمرأةٍ أعجب بها كثيراً، وأظن أنني سأقع في غرامها. لكن ما إن ينتهي الفيلم، حتى أنتقل إلى غيره، وهي كذلك، فتقل لقاءاتنا تدريجاً، وتنتهي العلاقة عاجلاً أم آجلاً. وهكذا هي الحال في مهنتنا».

ثم تابع: «لم تجيبي عن سؤالي يا كلير. أخبريني عن حياتك العاطفية».

ـ لا بد أنك تعرف كل شيءٍ عنها من لوسي.

وما فائدة الكذب الآن؟ فلا شك أنّ لوسي كانت صريحةً في ما يتعلق بحياة أختها العاطفية المملة.

وما لبثت أن أقرت وهي تلاحظ ابتسامته: «لم تكن مثيرةً إلى حدّ تخطف فيه العقول».

ـ وهذه هي حالي أيضاً. فبعد طفولتي، منعني حذري من المجازفة.

فتنهدت كلير: «إن الحب مجازفةٌ، أليس كذلك؟ أعرف ماذا تقصد، فلقد وقعت في الحب مرةً، ثمّ جُرحت جرحاً بليغاً».

فاحتدت عيناه: «أكان الشاب الذي حاول التودد إليك ليلة الميلاد؟».

فأومأت برأسها، مما دفعه إلى المتابعة بهدوء: «إذاً، أُغرمت به مرةً».

ـ ظننت ذلك لمدةٍ، لكني أدركت أنني لم أُبدِ نحو هال التزاماً حقيقياً.

ففي ذلك الوقت، كان عليّ أن أهتم بأولوياتٍ أخرى هي عائلتي، أي أخوتي ووالدي. كانوا يحتاجون إلي، أكثر من هال. وما كان عليّ أن أتفاجأ حين رحل مع امرأةٍ أخرى، فلا شك أنها منحته ما لم أفعله. وكل علاقةٍ ترتكز على شخصين، ويتوقع الناس أن يستردوا ما يمنحونه. وبما أنني لم أعطِ هال ما أراده، فقد رحل بحثاً عن مبتغاه في مكانٍ آخر.

بدا ثغر دنزل ملتوياً، واستحالت نظرته عنيفةً ومتفهمة، وهو يقول: «تبدين كإنسانةٍ باردة يا كلير، وقد خدعتني لفترةٍ. لكن، في الليلة الماضية، أدركت أنك لست بالبرودة التي تدّعينها».

فتجنبت نظراته وهي متوردة الوجه: «في الواقع، أظن أن كلانا بارد».

ـ انتظرت كل حياتي إنساناً أستطيع الوثوق به. لكن، بما أنني لم أكن أثق بأحدٍ، خاف الناس مني، مما ضاعف شكّي فيهم. ولم تبنَ علاقاتي على أسسٍ متساويةٍ قط. فإما أنّ الفتاة تخضع لي، فأحتقرها، وإما أنني أستحيل صديق المرأة المفضل. ومع أنها تستغلني لتلقي عليّ بحمل مشاكلها، إلا أنها تعود وتحتقرني من جراء ذلك.

أجابت كلير بنبرةٍ جافةٍ: «يبدو لي إنك تعرف هيلين ولوسي جيداً. كما أنك تدعي معرفتي أيضاً».

وما كان منه إلا أن ضحك على نحوٍ فظ، وقال: «أعتبر علاقتي بهيلين ولوسي نموذجاً واضحاً عن كل علاقاتي مع النساء حتى الآن. ولطالما دفعني الفضول إلى الرغبة في اكتشاف أفكار النساء... أحب أن أصغي إليهن فيما يتكلمن، وأحب أن أدفعهن إلى الحديث عن أنفسهن، وعن مشاعرهن، وعن طموحهن في الحياة. وبقيت أتمنى لو أستطيع التوغل في أذهانهن، عساي أفهم الواحدة منهن جيداً، لكن آمالي ذهبت أدراج الرياح. فلم أفهمهن قط كما فهمت الرجال. وأظن أن الرجال لا يفهمون النساء أبداً، فعقولنا غاية في الاختلاف».

فعلقت كلير بحدة، وهي تدفع يده بعيداً عنها: «يا لهذا الهراء! وهلاّ

توقفت عن العبث بشعري؟».

- لن تقولي لي إنّ الرجال والنساء متشابهون، أليس كذلك يا كلير؟

- كلا طبعاً، نحن نختلفون لكن...

قاطعها، ووميضٌ قاسٍ في عينيه: «في تلك الأشهر، فكّرت فيك، حتى أثرت حيرتي. وقضيت وقتاً طويلاً، وأنا أحاول فك لغزك. لكني لم أحلم قط بكل هذا الشغف المسجون في قلبك. وحين بدأت تعانقينني، فكّرت في أنك أصبحت لي أخيراً. ولكن، قبل أن أدرك ماذا يجري، رحلتِ، لتتركيني في حالةٍ من اليأس. وهجرني النوم لساعاتٍ، أما الآن، فستعوضينني عن كل هذا».

ونظر في عينيها، وسألها: «أنت تحبينني فعلاً، أليس كذلك يا كلير؟».

- نعم.

نطقت بالحقيقة على الرغم منها، لا سيما أنه لم يترك لها مجالاً للكذب أو التظاهر، أو إخفاء المشاعر.

قال: «كلير... أظن أنني لن أفهمك أبداً. كل ما أعرفه هو أنك تجرين في دمي، ولا أستطيع التفكير في سواك. وبعد الليلة الماضية، قد أرتكب جريمةً مقابل ضمك بين ذراعيّ».

وفي هذه اللحظة بالذات، شعرت بأنها تحلم، كما حلمت عشية الميلاد، قبل أشهرٍ، وكما كانت تحلم طيلة حياتها بذلك الرجل الذي يقبل إليها من خلف ستار الليل الأسود، ليحملها ويرحل بها.

وبتأوهٍ حاد، تاقت أن يعانقها. وعندها فقط، أدركت أنه عناقهما الحقيقي الأول. ففي الليلة الماضية، بقيت تعذبه وترفض أن يدوم عناقهما أكثر من ثانية. أما الآن، فدنزل هو المسيطر.

- يا إلهي... كلير... أنا... أنا أحبك.

أحسّت كلير بالدموع تحرق عينيها، وعجزت عن الكلام. أما هو، فأخذ يهمس: «أنا مجنون بك منذ مدةٍ طويلةٍ، منذ اليوم الأول... في

مكتبك... كنت غايةً في البرودة والخشونة، بل شقراء باردة في عينيها تهديدٌ صريح. فألقيت عليك نظرةً، ووددت أن أعرف إلى أي مدى يمكن للجليد أن يذوب».

فردت من غير أن تتفاجأ: «أحقاً؟».

ألم يكن هذا ما شكت فيه؟ فضحك وأجاب: «نعم، لقد أعجبت بك بشدة منذ البداية، لكنني أغرمت بك عشية الميلاد، حين جئت إلى منزلك، ورأيتك نائمةً في كرسيٍّ أمام النار... ثم فتحتِ عينيك، ونظرتِ إليّ بطريقةٍ عصرت قلبي عصراً. وكان شعرك الجميل يغمر المكان، ووجهك متسخٌ متورد. وللمرة الأولى منذ عرفتك، بدوت لي إنسانةً حقيقيةً تنبض بالحياة. وتملكتني رغبةٌ قويةٌ في معانقتك، منعتني من النوم طيلة الليل، وأنا أفكّر فيك».

عندئذ، أجابت بصوتٍ أجش: «كنت أحلم بك».

فاتسعت عيناه، وتناهى إليها انحباس أنفاسه: «كلير! ماذا حلمتِ؟».

لم تشأ أن تعترف، وقالت: «لا أذكر ولكنني فتحت عينيّ حين فُتح الباب، وأبصرتك أمامي. فلم أعرف إن كنت أحلم أم لا، إلا حين رأيت أبي ولوسي والآخرين وراءك في الرواق».

ولم تعتقد أن الوقت مناسبٌ لتخبره بتفاصيل حلمها. ولعلها لن تخبره أبداً.

- ليتني عرفت... لكنّا وفرنا الكثير من الوقت الضائع.

وحاولت كلير أن تحيطه بذراعيها، ولكن القيد أفشل مرادها، فسألته: «ألا يمكننا أن ننزع القيد الآن».

فأشار عليها: «سيتوجب علينا النهوض والبحث عن المفتاح».

وكرهت أن تقطع تلك اللحظة السعيدة التي تجمعهما، وقالت: «لننتظر قليلاً إذاً».

وبدأت يدها تداعب شعره وتنعم بدفء ملمسه... وراحت تهمس

له: «أحبك... علمت أنني سأحبك منذ رأيتك...».

فعانقها بعنفٍ، ثم قال: «بل كرهتني منذ رأيتني يا كلير، وقد أوضحت ذلك جيداً».

عندها، اعترفت: «بل كنت خائفةً منك، خائفةً من حبك، خائفةً من الألم. ولم أرد أن تسيطر عليّ».

فسألها، وفي صوته تلهفٌ خفيّ: «وهل أسيطر عليك؟».

اختلست كلير النظر إليه من تحت أهدابها. وعرفت أنه من غير الحكمة أن تخبره أنه يمارس عليها سلطةً قويةً ورهيبة. وما لبثت أن قالت: «أحبك... ألا يكفيك هذا؟».

وفكرت في أنه لن يعرف أبداً أن الحب هو القوة الوحيدة التي كانت تخشاها دوماً.

وأمسك دنزل بيدها الطليقة، وقبّل راحتها بعمقٍ وحرارة، وعيناه مغمضتان، وعلى وجهه عاطفةٌ تواقة، وقال: «أنت تسيطرين عليّ كلير. وأنا لك بكاملي. ولو أن هذه لا تعدّ قوةً، فماذا يبقى؟».

***